موقف أبي الطيب المتنبي من حساده (٣٠٣ ـ ٣٥٤هـ)

عرض ودراسة وتحليل

أ.د.هاشم صالح منَّاع *

تأريخ التقديم:٢/١٢/٢٠١٢ تأريخ القبول:٢/١/٢٠١٣

مقدمة :

إن شخصية المتنبي شخصية أثيرة مؤثرة، متفردة متميزة، نسيج متكامل، فيها مقومات وفضائل تفوق أقرانها، تثير الإعجاب والحسد على حدٍّ سواء. إعجاب يظهر بوضوح جليّ عند الخاصة والعامة، عند الملوك والأمراء الذين حرصوا على اجتذابه، طمعاً في الحصول على غرر قصائده، إذ فتحوا له أبواب قصورهم، ورفعوا الحجاب عنه في مجالسهم، ونادموه في حلّهم وترحالهم، وأجزلوا العطاء له، وخصُّوه بالصّلات، بل تنافسوا في زيادة جوائزه أملاً في استبقائه لديهم ــ لعدم وجود المنافس له، ولأنه كان مالئ الدنيا وشاغل الناس، وشاعر العربية بلا منازع ــ حتّى يكون مختصاً بهم، منقطعاً لهم. أما الإعجاب الآخر فقد تمثّل في إعجاب الشعراء ونفر من أصحاب السلطة والناس؛ لأنه لا ينطق إلا بالدرر، يأتي بكل نادرة عجيبة، وينظم كل قصيدة فريدة، ويصوغ الحكم والأمثال الشاردة، ويرسل عيون أبياته السائرة، لكن هذه الفضائل كانت سبباً إلى تحوّله عند بعضهم إلى نوع من الحسد والخصومة والعداوة والضغينة؛ لأنه حال بينهم وبين الوصول إلى الملوك والأمراء، وحجب عنهم الجوائز والهبات، وسبَّب في كساد أشعارهم، وإقصائهم عن مجالسهم فعجزوا عن مجاراته، وقصّروا عن اللحاق به، وخابوا في مقارعته، وأخفقوا في منافسته؛ لأنه فاز بقصب السبق، وبقي في الحلبة وحيداً بلا منازع، يصول ويجول. أضف إلى ذلك أسباباً أخرى كثيرة سنتحدث عنها فيما بعد، لذلك كان غصة في حلوقهم، وهمّاً في نفوسهم، وسهماً في قلوبهم،

* مدير مركز الدراسات والبحوث اللغوية والترجمة / جامعة عجمان / الإمارات العربية المتحدة.

وسيفاً مسلطاً على رقابهم، ما دفع بهم إلى التربص به، والكيد له، والوشاية ضده عند أصحاب السلطة. فما كان أمام المتنبي من سبيل إلا أن يفضح أسرارهم، ويبيّن سبب حسدهم له، ويوضح موقفه منهم، ويدرأ هذا الخطر المحدق به بطريقته، ويدافع عن نفسه، ويهاجم حساده، ويصب جام غضبه عليهم، مترفعاً عن مجاراتهم، والسير على خطاهم.

مفهوم الحسد:

الحسد: هو أن يتمنى المرء أن تتحوّل إليه نعمة المحسود وفضيلته، أو يسلبهما. وقيل: أن تتمنى زوال نعمة المحسود إليك. أي: أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول عنه وتكون له دونه.(١) والحسد شرٌّ، يقول الله تعالى:﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ... وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.(٢) يعرّف العلامة سيد قطب الحسد بقوله: هو انفعال نفسي إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمنّي زوالها. وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال بسعي منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ، أو وقف عند حدّ الانفعال النفسي، فإن شرّاً يمكن أن يعقب هذا الانفعال.(٣)

أسباب حسد المتنبي:

هناك كثير من القضايا الجدلية التي ثارت حول المتنبي، وهناك كثير من الشروط التي توافرت في شخصيته، وهناك كثير من المميزات التي تميز بها فنه، وهناك كثير من الأسباب الموجبة التي دفعت بالحاسدين والشامتين إلى الكيد له، والحقد عليه، والوشاية ضده، والتعصب عليه،(٤) أذكر منها:

أولا:الطموحات والمطامع التي حَدَت به إلى أن يتطلع بآماله إلى مدى كبير واسع في الدنيا، يقول في بيان المقصد لكافور:

---

(١) اللسان: حسد.

(٢) الفلق : ١و٢و٥. (الفلق: من معانيه الصبح، والخلق كله. بالإشارة إلى كل ما يفلق عنه الوجود والحياة. ومن شر ما خلق: أي من شر خلقه إطلاقاً وإجمالاً).

(٣) في ظلال القرآن ٤٠٠٨/٦.

(٤) انظر مثلاً: شرح ديوان المتنبي ١٠٩/٢ــ١١٠ و٢٤٦ــ٢٤٨ و٣٤١/٤ــ٣٤٢.

وَغَيْـــرُ كَثِيـــرٍ أَنْ يَـــزورَكَ رَاجِـــلٌ فَيَرْجِعَ مَلْكَاً لِلْعِـرَاقَيْنِ وَالِيَـــــا[١]

ويقول في آماله الواسعة وطموحاته العريضة:

يَقُولُونَ لِي مَا أَنْـتَ فِـي كُـلِّ بَلْـــدَة وَمَا تَبْتَغِي؟مَا أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُـسْمَى[٢]

ويقول في علو الهمة:

أُرِيـدُ مِنْ زَمَنِـــي ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِـــي مَا لَيْسَ يَبْلُغُـهُ مِـنْ نَفْـسِه الـزَّمَنُ[٣]

ثانياً: إعجابه بنبوغه وذكائه وبلاغته أثار حساده ودفعهم إلى اتهامه بالنبوة؛ ليخفضوا من مكانته، ويحطّوا من شأنه، وينزلوا من رفعته، ويتخلصوا منه، ذلك أن نفوسهم امتلأت غيظاً، وثارت حقداً، وأَمْرُ النبوة لم يكن كما زعموا، يروى أن المتنبي سئل: على من تنبأت؟ قال: على الشعراء. فقيل له: لكل نبي معجزة، فما هي معجزتك؟ قال: معجزتي هذا البيت:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْمَـرْءِ أَنْ يَـرَى عَـدُوّاً لَهُ مَـا مِـنْ صَـدَاقَتِه بُـدُّ[٤]

وقيل: إنما سمي متنبئاً لفطنته. وقيل: إن المتنبي قال: أنا أول من تنبأ بالشعر. وقيل غير ذلك.[٥]

---

(١) السابق ٤٢٧/٤.(العراقان: الكوفة والبصرة.وقيل:عراق العرب وعراق العجم)انظر: اللسان: عرق. ومعجم البلدان، ياقوت الحموي ١٠٥/٤.

(٢) شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ٢٣٥/٤. ويقول لكافور:

إِذَا لَمْ تُنِطْ بِي ضَيْعَةً أَوْ وِلايَـــةً فَجُودُكَ يَكْسُونِي وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ

يلتمس ولاية صَيَدَاء. فأجابه كافور: لستُ أجسر على توليتك صيداء لأنك على ما أنت عليه: تحدث نفسك بما تحدث، فإن وليتك صيداء فمن يطيقك؟ انظر: خزانة الأدب، البغدادي ٣٥١/٢.

(٣) شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ٤/ ٣٦٤. وقد صارح كافوراً بمطلبه، انظر المصدر نفسه٣٢٤/١.

(٤) انظر مقالاً بعنوان: "الغموض في شعر المتنبي"، البرقوقي، الهلال، ص ١٢٢١.(م٤٣ سنة ١٩٣٤). وانظر البيت في شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ٩٣/٢.

(٥) يتيمة الدهر ١١٣/١. والعمدة، ابن رشيق القيرواني ١٧٢/١. وانظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان ٢٢١/١. والصبح المنبي عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي، ص٦٦. يقول القزويني في كتابه: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٧٠: إذا سمع المتنبي قصيدة حفظها بمرة واحدة، وابنه يحفظها بمرتين، وغلامه يحفظها بثلاث مرات، فربما قرأ أحد على ممدوح قصيدة بحضوره فيقول: هذا الشعر لي! ويعيدها ثم يقول: وابني أيضاً يحفظها، ثم يقول: وغلامي أيضاً يحفظها. ويبدو أنه ورث هذا الذكاء لابنه، وآثر أن يكون غلامه ذكياً أيضاً. ويقال: كان يحفظ الكتاب أو الديوان من أول نظرة. انظر مزيداً من التفصيل: حكم أبي الطيب المتنبي، د.هاشم مناع، ص٧٧ وما بعدها.

ثالثاً: أَخذ على عاتقه مهمة اجتماعية، وثورة سياسية قومية وطنية، ما حـدا بالحاسدين الكيد له لدى الحكام، يقول:

عِـشْ عَزِيزاً أَوْ مُـتْ وَأَنْـتَ كَـرِيمٌ بَيْنَ طَعْـنِ الْقَنَا وَخَفْـقِ الْبُنُـود
فَاطْلُـبِ الْعِزَّ فِـي لَظًـى وَذَرِ الـذُّلَّ وَلَـوْ كَـانَ فِـي جِنَـانِ الْخُلُـود[1]

رابعاً: اعتداده بنفسه، واعتزازه بشجاعته، وافتخاره بفروسيته التي تمثَّلت بركوب الخيل والضرب بالسيف، والطعن بالرمح، إذ وفّر له سيف الدولة كل سبل ذلك.[2] يقول:

فَالْخَيْـلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْـدَاءُ تَعْرِفُنِـي وَالسَّيْفُ وَالـرُّمْحُ وَالْقِرْطَـاسُ وَالْقَلَـمُ[3]

ويعلق ابن جني على هذا البيت بقوله: لقد سبق المتنبي الناس إلى ما جمعه في هذا البيت، ولم يجتمع مثله في بيت ما علمت.[4]

ويقول في نفسه التي تشتهي الموت في ميادين القتال:

فَمَوْتِي فِـي الْوَغَـى أَرَبِـي لأَنِّـي رَأَيْتُ الْعَـيْشَ فِـي أَرَبِ النُّفُـوس[5]

ويرى أن لذته ومتعته تتحقق في اقتحام المهالك التي هي غاية ألم النفوس:

سُبْحَانَ خَالِقِ نَفْـسِي كَيْـفَ لَذَّتُهَـا فِيمَا النُّفُوسُ تَـرَاهُ غَايَـةَ الأَلَـمِ؟[6]
رِدِي حِيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْـسُ وَاتَّرِكِـي حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ وَالـنِّعَمِ! [7]

ويقول

كَذَا أَنَا يَا دُنْيَـا إِذَا شِـئْتِ فَاذْهَبِـي وَيَا نَفْسُ زِيدِي فِي كَرَائِهِهَا قُدْمَـا!! [8]

---

(١) شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ٢/٤٥ــ٤٦. وانظر مثالاً آخر في المصدر نفسه٤/٢٥١ــ٢٥٢. وما يقول فيه عبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة، ص ٢٦٦.

(٢) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي، ص ٧١. وانظر فروسيته في: اليتيمة ١/١١٨.

(٣) شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ٤/٨٥.

(٤) انظر: يتيمة الدهر ١/١٩٧.

(٥) شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ٢/٣٠١.

(٦) السابق ٤/٢٩٥.

(٧) السابق ٤/١٦٠.

(٨) السابق ٤/٢٣٥.

خامساً: تفرده على أبناء زمانه، وتميزه من أبناء عصره، يقول:

إِنِّي أَنَا الذَّهَبُ الْمَعْرُوفُ مَخْبَرُهُ يَزِيدُ فِي السَّبْكِ لِلدِّينَارِ دِينَارَا[١]

ويقول في عدم وجود النظير له أو الشبيه، في بعد الهمة والمنزلة:

أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِي بِمَا وَكَأَنَّهُ فَمَا أَحَدٌ فَوْقِي وَلا أَحَدٌ مِثْلِي[٢]

ويقول:

إِنْ أَكُنْ مُعْجَباً فَعُجْبُ عَجِيبِ لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدِ[٣]

ويقول :

وَهَكَذَا كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا
مُحَسَّدُ الْفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثَرِي أَلْقَى الْكَمِيَّ وَيَلْقَانِي إِذَا حَانَا[٤]

سادساً: قوته وهمته وعزيمته وإباؤه وأنفته، يقول:

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ فَمِنَ الْعَجْزِ أَنْ تَمُوتَ جَبَانَا[٥]

ويقول:

وَإِنِّي إِذَا بَاشَرْتُ أَمْراً أُرِيدُهُ تَدَانَتْ أَقَاصِيهِ وَهَانَ أَشَدُّهُ[٦]

ويقول:

إِذَا قَلَّ عَزْمِي عَنْ مَدَى خَوْفَ بُعْدِهِ فَأَبْعَدُ شَيءٍ مُمْكِنٌ لَمْ يَجِدْ عَزْمَا[٧]

سابعاً: الكبرياء وجنون العظمة: يقول الحاتمي ألد أعداء المتنبي: "كان المتنبي عند وروده مدينة السلام التحف رداء الكبر وأذال ذيول التيه، وصعر خده ونأى بجانبه، وكان لا يلقى أحداً إلا أعرض عنه تيهاً، رافلاً من التيه في برديه، يخيل إليه أن العلم

---

(١) السابق٢/٢٤٤. وانظر: مثالاً آخر في المصدر نفسه ٤/١٩٠.

(٢) السابق ٣/٢٨١.(أمط: أزل).

(٣) السابق ٢/٤٥و٤٧. (يقول: إن كنت معجباً بنفسي فهذا العجب صادر من رجل عجيب لا يرى لأحد مزية يمتاز بها عليه، فليس عجبي إذاً بمنكر).

(٤) السابق ٤/٣٥٤.

(٥) السابق ٤/٣٧٢.

(٦) السابق ٢/١٢٧. وانظر مثالاً آخر في المصدر نفسه ٤/٢٧٩.

(٧) السابق ٤/٢٣٤.

مقصور عليه، وأن الشعر بحر لم يغترف نميرَ مائه غيرُه، وظل يمرح في تثنيه حتى إذا يخيل أنه القريع الذي لا يُقارع، والسابق الذي لا يجارى في مضمار، وأنه رب الكلام ومفتض عذارى الألفاظ، ومالك رق الفصاحة نثراً ونظماً... ".[١] وكأن المتنبي يرد عليه وعلى غيره قائلاً في علو همته، وشموخ منزلته، ورفعة درجته:

وكَيْفَ لا يُحْسَدُ امْرُؤٌ عَلَمٌ لَهُ عَلَى كُلِّ هَامَةٍ قَدَمُ[٢]

ثامناً: ترفعه عن مجالس اللهو، وتعاطي المجون، وبعده عمّا كان غيره من الشعراء يغرق به، وتسول له النفس بل تأمره بارتكاب السوء، يقول:

وَلا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِقّاً وَقَيْنَةً فَمَا الْمَجْدُ إلاَّ السَّيْفُ وَالْفَتْكَةُ الْبِكْرُ[٣]

ويقول:

فُؤَادٌ مَا تُسَلِّيهِ الْمُدَامُ وَعُمْرٌ مثْلُ مَا تَهَبُ اللِّئَامُ[٤]

تاسعاً: ابتعاده عن الحب والغزل، ومجاراة التيار السائد في عصره، فها هو ذا يدعو على قلب يميل إلى الحسان بالعدم والفناء:

عَدِمْتُ فُؤَاداً لَمْ تَبِتْ فِيهِ فَضْلَةٌ لِغَيْرِ الثَّنَايَا الْغُرِّ وَالْحَدَقِ النُّجْلِ

ذَرِينِي أَنَلْ مَا لا يُنَالُ مِنَ الْعُلا فَصَعْبُ الْعُلا فِي الصَّعْبِ وَالسَّهْلُ فِي

تُرِيدِينَ لُقْيَانَ الْمَعَالِي رَخِيصَةً وَلا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ[٥]

---

(١) وفيات الأعيان، ابن خلكان٣٦٢/٤. ومعجم الأدباء، ياقوت الحموي١٥٩/٩. والصبح المنبي، يوسف البديعي ص١٢٨. وقد وضع الحاتمي رسالة وسمها بـ"الحاتمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام أرسطو في الحكمة"؛ ليهاجمه بها. انظر: المقدمة،ص٢٢ــ٢٣. (أذال: تبختر).

(٢) شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ١٨٠/٤. انظر قصيدته التي يفتخر بها بنفسه في المصدر نفسه ٣٢١/٤ــ٣٢٤. وانظر ترفعه عن الملوك المصدر نفسه ٣٤٣/٤.

(٣) السابق ٢٥٣/٢.

(٤) السابق ١٩٠/٢. انظر أمثلة أخرى في المصدر نفسه: ١٦٥/١ــ١٦٦و١٨٦و٣/٤١و٤/٣٢١ــ٣٢٢.

(٥) السابق ٤/٣. ويشير في موضع آخر إلى حبه لوجه الحسان لكنه يعف عن أبدانهن، كما أن معاني المروءة الإنسانية، والأنفة وعزة النفس والإباء تحول بينه وبين الخلوة بالحسان. انظر المصدر السابق٣٥٠/١. وانظر مثالاً آخر في ٣١٧/١ــ٣١٨.

عاشراً: ترفعه عن مدح غير الملوك والأمراء، فها هو ذا مثلاً يلتقي الأمير أبا محمد بن طغج الذي لم يزل يسأله أن يخص أبا القاسم طاهراً العلوي بقصيدة من شعره، وأنه اشتهى ذلك، وضمن له عنده مئات من الدنانير، فقال المتنبي: ما قصدت إلا الأمير ولا أمدح سواه...[١] كما أنه ترفع عن مدح المهلبي الوزير ذهاباً بنفسه عن مدح غير الملوك.[٢]

حادي عشر: حرص الأمراء والسلاطين والقواد والولاة على استقطابه، وجذبه وإعداد الجوائز والصلات له، من أجل الحصول على غرر قصائده... ومعظم ديوان المتنبي شاهد على ذلك.

ثاني عشر: اتصاله بأصحاب السلطة ومنادمتهم، ونيل عطاياهم وهباتهم، منهم: أبو العشائر الحمداني، وسيف الدولة، وأبو محمد بن طغج، وبدر بن عمار، وكافور الإخشيدي، وابن العميد، وعضد الدولة ابن بويه... وقصائده في ديوانه خير دليل على ذلك. يقول في قصيدة له:

فَلَو أَنِّي حُسِدْتُ عَلَى نَفيس لَجُدْتُ به لِذى الْجَدِّ العَثُور
وَلَكِنِّي حُسِدْتُ عَلَى حَيَاتي وَمَا خَيْرُ الْحَيَاة بِلا سُرُور[٣]

يقال: كان لا يمدح إلا الملوك العظماء، ومن يستحق أن ينال غرر قصائده، وقد اتصل بسيف الدولة، ومدحه بقصيدة لامية، وقد أمر سيف الدولة أن يحقق له كل ما أمر به في قصيدته، وقد حسده من كان في الجلسة.[٤]

---

(١) انظر: حاشية السابق١/٢٧٤. وحاشية شرح التبيان على ديوان أبي الطيب المتنبي، العكبري١/١٤٧. (نقلاً عن الواحدي).

(٢) انظر: يتيمة الدهر ١/١٢٠. أرسل المتنبي رسالة إلى الصابي، الذي راسله في أن يمدحه بقصيدتين ويعطيه خمسة آلاف درهم، فقال أبو الطيب: "والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك...". انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي ١/٦٨.

(٣) شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ٢/٢٤٨.

(٤) آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني، ص١٦٩. وانظر البيت الذي أمر في كل شطر منه بسبعة أوامر في: شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ٣/٢٠٩.

ثالث عشر: دالَّته على ممدوحيه والتعريض بهم، وتعمد تجاهله إياهم، وتعامله معهم الندّ للندّ. والشواهد على ذلك كثيرة.(١)

رابع عشر: شروطه التي أملاها على أصحاب السلطة وذوي الجاه، وقد قبلوا بها، ونزلوا عند رغبته، ولم يكن يجرؤ عليها أحد من الشعراء من قبله ومن بعده، وكان من شأنها أن ترفع من مكانة الشعر، وتحفظ هيبة الشعراء، ذلك أنه اشترط على سيف الدولة أنه لا ينشده إلا وهو قاعد، وأنه لا يقبل الأرض بين يديه، وأن يقربه في مجلسه. كما اشترط على كافور أن يقف بين يديه، وفي رجليه خفان، وفي وسطه سيف ومنطقة، وأن يركب على فرسه ومعه حاجبان من ممالكيه، وهما بالسيوف والمناطق عن يمينه وشماله. (٢)

خامس عشر: شعوره بالكفاءة؛ لتسلم السلطة، وبالأحقية في الحكم؛ لأنه أجدر من غيره، ففؤاده فؤاد الملوك عزماً ورأياً ودهاءً، وإن كان لسانه لسان شاعر، إذ يخشى أن يحسب على الشعراء فيحول ذلك دون تسلمه حكماً أو ولاية، يقول:

وَفُؤَادِي مِنَ الْمُلُوكِ وَإِنْ كَا نَ لِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعَرَاءِ(٣)

سادس عشر: فلسفته في الحياة: القوة والشجاعة، وإعمال الفكر، وكدّ القريحة، وهدفه الوصول إلى العلا والمجد، والوسيلة إلى ذلك المال، يقول:

يَرَى الْجُبَنَاءُ أَنَّ الْعَجْزَ عَقْلٌ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللَّئِيمِ
وَكُلُّ شَجَاعَةٍ فِي الْمَرْءِ تُغْنِي وَلا مِثْلَ الشَّجَاعَةِ فِي الْحَكِيمِ(٤)

أليس هو صاحب الحكمة التي تقول: إن العقل مُقدَّم على الشجاعة، ولكن إذا عاضد كل منهما الآخر لنفس أبية فإنها تبلغ أعلى مبلغ من العلا؟:

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ وَهْيَ الْمَحَلُّ الثَّانِي

---

(١) انظر مثلاً: داليته في سيف الدولة في شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ٣/٢ــ١٥. وميميته في سيف الدولة ٨٠/٤ــ٩٠. ويائيته في كافور الإخشيدي ٤٣٢/٤ــ٤٣٤.

(٢) وفيات الأعيان، ابن خلكان١٢٢/١. وبغية الطلب في تاريخ حلب، ابن العديم ٦٦٣/٢. والصبح المنبي،ص١١٢.

(٣) شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ١٥٩/١.

(٤)السابق ٢٤٦/٤.

فَإذَا هُمَا اجْتَمَعَا لنَفْس مُرَّة بَلَغَتْ منَ الْعَلْيَاء كُلَّ مَكَان(١)

ويعود إلى تقديم الشجاعة والسيف على العقل؛ لأن المجد يدرك بالسيف لا بالقلم، يقول:

حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلامِي قَوَائِلُ لِي الْمَجْدُ لِلسَّيْفِ لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ(٢)

هذا هو ديدنه، وهذه هي عادته، يتغنى بالعقل ويقدمه على كل شيء، ثمّ يعود ليضرب على أوتار الشجاعة ويقدمها على العقل، ثم يعود؛ ليعزف على ألحان المال ويقدمه عليهما، يقول:

فَلا مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلا مَالَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ(٣)

إنها مبادئ ليست متناقضة ولا متباعدة، إنها مجرد اختلاف في اللفظ، وتلاعب في التقديم والتأخير، واتفاق في الهدف ، إنها كلها تتضافر وتتحد من أجل بناء المجد والعلا. ويقول في قوة عزيمته:

وَإِنِّي إِذَا بَاشَرْتُ أَمْراً أُرِيدُهُ تَدَانَتْ أَقَاصِيهِ وَهَانَ أَشَدُّهُ(٤)

ويقول:

وَمَنْ يَبْغِ مَا أَبْغِي مِنَ الْمَجْد وَالْعُلا تَسَاوَى الْمَحَايِي عِنْدَهُ وَالْمَقَاتِلُ(٥)

ويقول لأبي العشائر الحمداني في بعد همته، وترفعه:

فَسِرْتُ إِلَيْكَ فِي طَلَبِ الْمَعَالِي وَسَارَ سِوَايَ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ(٦)

سابع عشر: موهبته وعبقريته وتربعه على إمارة الشعر، وذروة المجد والكرم، يقول:

أَنَا تِرْبُ النَّدَى وَرَبُّ الْقَوَافِي وَسِمَامُ الْعِدَا وَغَيْظُ الْحَسُودِ(٧)

---

(١)السابق ٣٠٧/٤.(المرة: القوة والشدة، والمراد: الإباء وعزة النفس). وهناك رواية:"لنفس حرة".

(٢) السابق ٢٩١/٤. (وفي الكلام محذوف به يتم المعنى تقديره: ما زلت أسافر على إبلي إلى من لا يستحق القصد إليه حتى...).

(٣)السابق ١٢٣/٢.

(٤)السابق ١٢٧/٢.

(٥)السابق ٢٩٤/٣.

(٦) السابق ٣٢٥/٢.

(٧) السابق ٤٨/٢.

ويقول في تقدمه على غيره، وسبقه إياه، واختراعه المعاني الأبكار التي لم يسبق إليها، في الوقت الذي كان غيره من الشعراء يقول ما سبق إليه وقيل من قبله:

أنَا السّابقُ الهادى إلى ما أقُولُهُ إذ القَوْلُ قَبْلَ القائلينَ مَقُولُ[١]

ويقول في عدم مقدرة أحد من منافسيه على إزالته من موضعه، ولا حتى زحزحته، فهو كصخرة الوادي لا يتمكن أحد من اقتلاعها، أما إذا نطق فهو في علو المنطق كالجوزاء، فإذا "خفي مكاني على الغبي فلم يعرف قدري ولم يقر بفضلي، فأنا عاذر له؛ لأنه كالأعمى الذي لا يرى الأشياء، فالأعمى معذور فكذلك الغبي":

أنا صَخْرَةُ الوادي إذا ما زُوحمَتْ وإذا نَطَقْتُ فإنّني الجَوْزاءُ
وإذا خَفِيتُ على الغَبيّ فَعَاذِرٌ أنْ لا تَراني مُقْلَةٌ عَمْيَاءُ[٢]

ويقول في الاعتداد بشعره:

أنَا الَّذي نَظَرَ الأَعْمَى إلَى أَدَبِي وأَسْمَعَتْ كَلِمَاتي مَنْ بِه صَمَمُ
أَنَامُ مِلْءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ[٣]

ويقول:

وَمَا الدَّهْرُ إلاَّ مِنْ رُوَاة قَلائِدي إذَا قُلْتُ شعْراً أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا[٤]

إذاً، هو شاعر ليس كالشعراء، وشخصية ليس لها مثيل، ونفس أبية ليس لها شبيه، إنه تعاظم على سائر الناس، وتعرض لعداوتهم، وأعرض عن شانئيه من رجال الدولة والمتأدبين، وتعمد تجاهلهم جميعاً، والتحف رداء الكبر والعظمة.[٥]

إن هذه القضايا مجتمعة أثارت الحقد في نفوس الحاقدين، وأشعلت الضغينة في قلوب الشامتين، وفجرت القهر في أفئدة الوشاة والمتربصين، فأخذوا "يصورونه في حالة خلقية هي نقيصة النقائص في الطبع، وعيب العيوب

---

(١) السابق ٢٣٠/٣.

(٢) السابق ١٤٣/١-١٤٤.

(٣) السابق ٨٣/٤ـ٨٤. وانظر مثالاً آخر في المصدر نفسه ٢٣٠/٣.

(٤) يتيمة الدهر ١١٠/١. وانظر البيت في السابق ١٤/٢ . وفي العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب، ناصيف اليازجي ١٨٥/٢ رواية : (قصائدي) بدلاً من (قلائدي). ويعلق الثعالبي على هذا البيت بقوله: "سار ذكره مسير الشمس والقمر، وسافر كلامه في البدو والحضر، وكادت الليالي تنشده، والأيام تحفظه".

(٥) مقالة بعنوان: "جنون العظمة في المتنبي"، عبد الرحمن صدقي، الهلال، ص١١٧٩(م٤٣ سنة١٩٣٤).

في الخلق. ولم يجد هؤلاء في زمنه سلاحاً يحاربونه به أقوى من هذا السلاح الذي يغري به الملوك وذوي المطامع والسلطان. وقد اتخذوا من صفة الكبرياء التي قلبوا حقيقتها فيه، وأنكروا فضيلتها عنده وسيلة استخدموها للدسّ عليه، والغضّ من شأنه".(١) .

رحلة المتنبي مع الحسَّاد والوشاة:

تجمع الحساد والوشاة والكائدون حول المتنبي من كل حدب وصوب ــ على الرغم من الحياة الخشنة التي عاشها، وضيق العيش، ورقة الحال ــ وبدؤوا يرمونه بسهام الكيد والشماتة. ويمكننا تسجيل رحلته مع هؤلاء على النحو الآتي:

١) ظل المتنبي "على هذه الحال حتى اتصل بسيف الدولة، فغرق في مكارمه الباهرات، فكان سيف الدولة يعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار ما عدا الخيل والجواري والخلع والجوائز والإقطاعات. ولكن نعمة مثل هذه النعمة لم تنج أبا الطيب من حسد الحساد وكيد الكائدين؛ لأنه زاحم في حضرة سيف الدولة غيره من الشعراء على هذه النعم حتى مات بعضهم حسداً. فلئن شكا أبو الطيب الحسد وهو في خشونة من العيش، فأخلق به أن يضجر من الحسد وهو يتقلب في ظلال النعيم، فصعب حينئذ على المتنبي أن يواظب على باب سيف الدولة: الشعراء يحسدونه ويوقعون فيه ويضربونه،وسيف الدولة يهزأ به ويعبث، فإنه لم يصن عرض المتنبي، ولا سلمت نعمته عليه من المنة والأذى".(٢)

---

(١) مقالة بعنوان: "فضيلة خلقية"، طاهر أحمد الطناحي، الهلال، ص ١١٨٢ (م٤٣ سنة١٩٣٤). وانظر مزيداً من التفصيل في هذا الشأن كتابنا: حكم أبي الطيب المتنبي، ص١٦ وما بعدها.

(٢) مقالة بعنوان: "حياة المتنبي"، شفيق جبري ، الهلال، ص١١٥٩ (م٤٣سنة ١٩٣٤). انظر حاشية شرح ديوان المتنبي١٩٦/١. وحصاد الهشيم ، إبراهيم المازني، ص١٤٨. وانظر قصيدته الميمية التي عاتب فيها المتنبي سيف الدولة في المصدر السابق ٨٢/٤ وما بعدها. وانظر بشأن ما جرى بينه وبين ابن خالويه الذي ضرب المتنبي بالمفتاح فأسال دمه. وفيات الأعيان، ابن خلكان ١٢٣/١. والصبح المنبي عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي، ص٨٦ــ٨٧. وانظر موقف أبي فراس الحمداني من المتنبي، المصدر السابق،ص٨٧وما بعدها. وموقف سيف الدولة من المتنبي في المصدر السابق، ص٨٨و ٩٢. وموقف أبي علي الفارسي من المتنبي في المصدر السابق،ص١٦٢. وقد شهد أبو علي ذات مرة للمتنبي، انظر: وفيات الأعيان ١٢١/١.

٢) لما غادر المتنبي سيف الدولة إلى دمشق، وجد فيها والياً يهودياً من أهل تدمر يعرف بابن مالك، ولاه كافور، طمع بمدائح المتنبي، الذي ثقل عليه الأمر ، ولم يمدحه، فأغاظه ذلك، وحقد عليه، وكتب إلى كافور بذلك.(١)

٣) رحل المتنبي إلى الرملة واتصل بأميرها الحسين بن طغج، فهدده جماعة من العلويين.(٢)

٤) وجَّه المتنبي رحله إلى كافور الذي خشي عليه أن يلحق به مكروه قبل أن يحصل على غرر قصائده، وخشي منه أن يهرب فوضع الجواسيس عليه، لكن المتنبي أحس بالخطر المحدق به، والشر المتربص له، ومع ذلك فقد وجد جماعة كانوا يوشون إلى كافور ضده، ويوغرون صدره عليه. (٣)

٥) ترك مصر إلى الكوفة ثم إلى بغداد فوقع بينه وبين أبي علي الحاتمي صراع وجفوة، فحقد عليه، وألَّب قلوب الناس ضده، لكنه لم يسلم أيضاً من شر الأمير معز الدولة ابن بويه؛ لترفعه عنه، وحقد الوزير المهلبي الذي رأى المتنبي من تماديه في السخف واستهتاره واستيلاء أهل الخلاعة عليه سبباً في عدم مدحه . وقد أثار الأميرُ والوزيرُ الشعراءَ في بغداد ضد المتنبي، وأجزلا لهم العطاء؛ ليتنافسوا في هجائه، ويتباروا في النيل من عرضه، وإسماعه ما يكره، إذ تماجنوا به، وتنادروا عليه، وحاولوا الحط من قدره ومكانته، وكسر عنفوانه. من بين هؤلاء الشعراء: ابن الحجاج، وابن سكرة الهاشمي، والحاتمي...(٤) حتى إن المتنبي لم يسلم من بعض شعراء البصرة، منهم أبو الحسين بن لنكك الذي بلغه ما جرى على المتنبي

---

(١) انظر: مقالة بعنوان: " أبو الطيب في مصر"، محمد شوكت التوني. الهلال، ص١١٦٣.(م٤٣سنة١٩٣٤). والصبح المنبي ،يوسف البديعي،ص١١٠. مع المتنبي،د.طه حسين،ص٢٧٨ــ٢٧٩. وانظر عن الحساد لدى بدر بن عمار السابق، ص١٣٥ــ١٣٧.

(٢) انظر: الصبح المنبي، يوسف البديعي، ص١١٠. والمتنبي، محمود محمد شاكر١/١٥٥وما بعدها.

(٣) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي، ص ١١٣.

(٤) يتيمة الدهر ١٢٠/١. ووفيات الأعيان، ابن خلكان ٣٦٣/٤. ومعجم الأدباء،ياقوت الحموي ١٦٠/٩ــ١٦٣. وبغية الطب في تاريخ حلب، ابن العديم ٦٥٧/٢. والصبح المنبي،ص١٢٩ــ١٣٠و١٤٣.

من وقيعة شعراء بغداد فيه، واحتقارهم له، وكان حاسداً له، طاعناً عليه، هاجياً إياه، زاعماً أن أباه كان سقاءً بالكوفة، فشمت به ، وهجاه.(١)

٦) يقال: قبل أن يصل المتنبي إلى ابن العميد، كان هذا الأخير يستبطن الكره والحسد في قلبه للمتنبي، وكان يخشى أن يدخل المتنبي بلاد فارس في طريقه إلى عضد الدولة دون أن يمدحه، ويعامله معاملة المهلبي الوزير في بغداد... وتذكر الروايات أنه كان حزيناً أشد الحزن، فسئل عن هذا الحزن، فقال: إنه ليغيظني أمر هذا المتنبي، واجتهادي في أن أُخْمِدَ ذكره. ويقال: ظل على حاله إلى أن قدم المتنبي إليه ومدحه، فاستقرت حاله وهدأت.(٢)

٧) رحل المتنبي إلى أبي شجاع عضد الدولة، وكان الصاحب بن عبَّاد يتطلع إلى زيارة المتنبي إياه بأصفهان، لكن المتنبي أعرض عنه، وترفع عن الرد على كتابه الذي أرسله إليه، ما جعله من ألد أعداء الصاحب، وأشد خصومه، فأخذ يتتبع هفواته، ويتلقط سقطاته في شعره وهفواته، وينعى عليه سيئاته، مجاهراً بها، معلناً ذلك على الملأ؛ ليشجع خصومه عليه، ويجرئ الناس على مهاجمته والنيل منه وهو أعرف الناس بحسناته، وأحفظهم لها، وأكثرهم استعمالاً إياها، وتمثلاً بها في محاضراته ومكاتباته.(٣)

٨) وتذكر الروايات أن أبا علي الفارسي كان بشيراز، وكان ممر المتنبي إلى دار عضد الدولة على دار أبي علي، وكان إذا مر به أبو الطيب يستثقله على قبح زيه،

---

(١) يتيمة الدهر، الثعالبي١/١٢١ . ويقال: كان الشيخ أبو سعد محمد بن أحمد العميدي عن أبي الطيب في غاية الانحراف، حائداً عن الإنصاف، فإنه تجاوز الحد في التعصب على المتنبي... انظر مزيداً من التفصيل: الصبح المنبي، ص ١٨١ وما بعدها.

(٢) الصبح المنبي، ص ١٤٦ وما بعدها.

(٣) يتيمة الدهر١/١٢٢. وبغية الطب في تاريخ حلب، ابن العديم ٢/٦٥٧. وانظر مقالة بعنوان: "الدسائس الأدبية بين المتنبي والصاحب بن عباد"، د.زكي مبارك، الهلال، ص ١١٤٩ــ١١٢٥.(م٤٣سنة١٩٣٤). والكشف عن مساوئ شعر المتنبي، الصاحب بن عباد، ص٣و١١وما بعدها.

وما يأخذ به نفسه من الكبرياء، وكان يطنب في ذمه، وظل على هذه الحال إلى أن عرفه ابن جني بحقيقة المتنبي وما يتميز به ويتفرد. (١)

٩) بعد أن نجحت زيارته إلى ابن العميد في أرجان وعضد الدولة في شيراز، ارتحل عنهما بحسن حال، ووفور مال، محملاً بالهدايا والصلات والهبات والعطايا... خرج عليه قوم من بني ضبة، وتعرضوا له، وكان بينهم وبينه جفوة وقيل غير ذلك، فقتلوه...(٢)

١٠) يقال في سبب مقتله: إن عضد الدولة كان حاقداً عليه، حاسداً سيف الدولة على حب المتنبي له، فقد مدح المتنبي عضد الدولة، فوصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراس مسرجة محلاة، ثم دسّ له من يسأله: أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال: إن سيف الدولة كان يعطي طبعاً، وعضد الدولة تطبعاً، فغضب عضد الدولة، وأرسل للمتنبي من يقتله.(٣)

بيان نفوس الناس وما تنطوي عليه:

إن المتنبي شاعر أسعفته عبقريته وثقافته وتجربته أن يكون خبيراً بالناس بما يقولون ويفعلون، عارفاً بمواقع الخطأ والصواب بما يتفوهون ويتصرفون، يقول:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ
وَعَادَى مُحِبِّيهِ بِقَوْلِ عُدَاتِهِ وَأَصْبَحَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ(٤)

إنه يسبر أغوار النفس الإنسانية، ويراقب أفعال الناس وتصرفاتهم، ويحكم عليهم من خلالها، إنه يربط بين قضيتين، ويجعل بينهما وشائج قوية تقوم على المنطق، تتمثل في أنه إذا ساء فعل المرء، فإنه لا محالة يسوء ظنه بالناس لما انطوت عليه سريرته، وإذا توهم ريبة في أحد فإنه يصدقها؛ لأنها انعكاس لنفسيته، يقول الواحدي: "المسيء يسيء

(١) بغية الطب في تاريخ حلب، ابن العديم ٦٦٦/٢-٦٦٧. والصبح المنبي، ص ١٦٢ وما بعدها.
(٢) انظر: يتيمة الدهر ٢٢٤/١. ووفيات الأعيان ١٢٣/١ .
(٣) المنتظم، ابن الجوزي٢٧/٧. والبداية والنهاية، ابن كثير ٢٧٤/١٥. وشذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي١٤/٣. ووفيات الأعيان١٢٣/١. والصبح المنبي، ص ١٧٥.
(٤) شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ٢٦٥/٤.

الظن؛ لأنه لا يأمن مَن أساء إليه، وما يخطر بقلبه من التوهم على إساءة غيره يصدّق ذلك".[١] وهذه القضية آفة وشر؛ لأنها لا تعتمد على دليل قطعي، ولا تقوم على برهان ثبوتي، إنها ترتكز على سوء الظن، لا سيما أنها اعتمدت على وشاية الأعداء، وبذلك تختلط الأمور في التمييز بين الصديق والعدو، والنتيجة: قطع أواصر الصداقة مع من يحبونه وهجرهم ومعاداتهم. ثم إنه يشير إلى نوع آخر من الناس بقوله:

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ وَمَرْكُوبُهُ رِجْلاهُ وَالثَّوْبُ جِلْدُهُ
وَلَكِنَّ قَلْباً بَيْنَ جَنْبَيَّ مَا لَهُ مَدًى يَنْتَهِي بِي فِي مُرَادٍ أَحُدُّهُ[٢]

إن المتنبي يعتد بنفسه، وينوه بقوته، ويشيد بأدبه، ويشير إلى طموحاته، ويعلن أنه ليس كغيره من شعراء عصره الذين يرضون بالميسور في هذه الدنيا. وهو هنا يقيم مقارنة بينه وبين غيره من الشعراء الذين حسدوه، هم أذلة وهو عزيز، هم يتهافتون على أبواب ممدوحيهم، وهو يترفع عنهم؛ لأنه قوي النفس، صاحب أنفة وكبرياء وعظمة. لا شك أنه يشير إلى طبقة من هم دونه. وهو لا يفتأ يبين نفسية هؤلاء الحساد ويظهر مواقفهم بقوله:

ذُو الْعَقْلِ يَشْقَى فِي النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ
لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ
يُؤْذِي الْقَلِيلُ مِنَ اللِّئَامِ بِطَبْعِهِ مَنْ لا يَقِلُّ كَمَا يَقِلُّ وَيَلْؤُمُ
الظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ[٣]

إنه يقسم الناس إلى قسمين، الأول: العاقل الذي يشقى بعقله وتبصره وتفكيره في الأمور والأحداث، والآخر: الجاهل الذي ينعم في الجهل والغفلة وقلة التفكير في عواقب الأمور، رغم أنه في الشقاء. ولا شك أن المتنبي يضع نفسه في القسم الأول، يرثي لحاله، ويشكو أمره، وكأنه يحسد القسم الآخر على عدم إعماله العقل، وقلة اكتراثه

(١) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ٦٥٠/٢ .
(٢) شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ١٢٣/٢.
(٣) السابق ٢٥٢/٤ــ٢٥٣. (القليل هنا ليس قليل العدد،وإنما الخسيس الحقير. واللئام:جمع اللئيم وهو ضد الكريم).

بمتاعب الدنيا، كأنه يرفل بذلك الجهل في النعيم، إنها مفارقة غريبة، تبدو غير طبيعية، توهم بعدم واقعيتها في ظاهرها؛ لأنها تقوم على التضاد، لكن هذا التوهم سرعان ما يزول بالتفسير والتوضيح. إن البيت الأول يعدّ مقدمة وتمهيداً للبيت الثاني الذي تقوّى به، ذلك أن صاحب العقل عليه أن يدافع عن سلامة شرفه، وهذا يعرضه للمخاطر، إذ لا يتحقق ذلك إلا عن طريق قتل الحساد والمناوئين؛ ليدفع الأذى عنه. ويعلق ابن جنّي على هذا البيت بقوله: " أشهد بالله لو لم يقل إلا هذا لكان أشعر الشعراء المجيدين، ولكان له أن يتقدم عليهم".(١) وما دام المتنبي في القسم الأول من أصحاب العقول والشرف والكرم فإنه لا محالة سيتعرض لأذى اللئام الذين يتربصون به؛ لأنهم طُبعوا على ذلك من باب الحسد وعدم التوافق بين الفريقين. والغريب في الأمر أن المتنبي كان في أبياته السابقة يميز بين فريقين، ولكنه في البيت الأخير عمّم الحكم في أن الظلم جبلت عليه نفوس الناس جميعاً بلا استثناء، وإذا ما وُجد بينهم عفيف فإنه ترك الظلم لعلّة كالعجز أو الخوف أو الجبن. يقول العكبري: "وهو من كلام الحكيم: الظلم من طبع النفس، وإنما يصدّها عن ذلك إحدى علتين: إما علّة دينية، أو علة سياسية كخوف الانتقام منها".(٢) والسؤال: هل وضع المتنبي نفسه مع الناس أو أنه استثناها؟ إنه سلّ نفسه منهم كما تُسلّ الشعرة من العجين، إنه فوق البشر، وهم دونه، إنه يعاني منهم ومن حقدهم وحسدهم ودسائسهم، إنه لا يعاني من علّة، ولا يضمر في نفسه شيئاً، إنه يبوح بكل ما يضمره ، ينطق لسانه بحال قلبه، وهذا ديدنه في تقسيم الناس، ووضعهم في زاوية ضيقة، حتى يتميز منهم، ويتفرد عليهم. إنه لا يَظلم وإن ظلم فإنه يشعر أنه صاحب حق؛ لأنه صاحب مبدأ ورسالة، عليه تحقيق الهدف، والوصول إلى الغاية مهما كانت الوسيلة. وكأني به يقول: ظلمي مقبول ومسوّغ، وظلم الناس غير مقبول ولا مستساغ، وليس هناك ما يسوغه، وعلى البشر القبول بهذا الواقع. إنه التحدّي لهؤلاء الحساد، لهؤلاء اللئام الذين عليهم أن يتفقوا مع مبادئه،

---

(١) حاشية السابق ٢٥٢/٤.

(٢) شرح ديوان أبي الطيب، البرقوقي ١٢٥/٤. والأمثلة على هذا النوع من الشعر كثيرة انظر المصدر نفسه ٣٤٢/٤-٣٤٤.

وعليهم أن ينزلوا عند رغباته؛ لأنه هو المثل الأعلى الذي يخلّصهم من واقعهم المرير. ونراه يلحّ على هذا الموضوع بقوله:

أَذُمُّ إِلَى هَـذَا الزَّمَـانِ أُهَيْلَـهُ فَأَعْلَمُهُـمْ فَـدْمٌ وَأَحْزَمُهُـمْ وَغْـدُ
وَأَكْرَمُهُـمْ كَلْـبٌ وَأَبْـصَرُهُـمْ عَـمٍ وَأَسْهَدُهُـمْ فَهْـدٌ وَأَشْجَعُهُـمْ قِـرْدُ(١)

إن المتنبي خَبَر الناس جميعاً، وقد أدرك ما تنطوي عليه نفوسهم، ونصّب من نفسه حَكَماً يحكم عليهم، وقد أصدر الحكم بأنهم أذلة حقيرون لا يستحقون المواجهة، أو أنه كان غير قادر على مواجهتهم؛ لخستهم، فاستعدى الزمان عليهم، كما نلاحظ في البيتين السابقين، وترك الصراع بينهم وبين الزمان، ذلك أن المواجهة كانت بينه وبينهم، لا مع الزمان. ولكن المشكلة ليست هنا، إنه يعاني من أزمة حقيقية بعد إصداره ذلك الحكم على أهل زمانه، معاناته تتفاقم؛ لأنه لا يستطيع أن يعيش وحيداً في هذا العالم الرحب، إذ لا بدّ من التعامل مع الناس، على الرغم من نقائصهم وعيوبهم، إنه الحر وهم اللئام من وجهة نظره، فكيف يجتمع الضدان؟ إنها المصيبة العظيمة التي تواجهه، فما الحل؟ إنه يصرخ صرخته المدوية، منتفضاً ومعارضاً ومستنكراً، يقول:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُـرِّ أَنْ يَـرَى عَـدُوّاً لَـهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِـهِ بُـدُّ(٢)

وصرخته هذه لم تغير من الأمر شيئاً، فعليه أن يرضخ ويستسلم للواقع المعاش، لكنه يرى أنه من نكد الدنيا ألا يجد الكريم مفراً من إظهار الصداقة لعدوه مع علمه اليقين أنه عدو له، وعليه أن يصطنع ذلك، وإن كان على حساب قيمه ومبادئه، إنها سحق للكرامة، وإلغاء للذات، وقتل للنفس. إذاً، المجتمع يعاني من أزمة خطيرة، هي أزمة الثقة في الخلق، يقول:

فَلَمَّـا صَـارَ وُدُّ النَّـاس خبّـاً جَزَيْـتُ عَلَـى ابْتِـسَـام بابْتِـسَـام

(١) شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ٢/٩٢ــ٩٣. (الفدم: العيي في ثقل وقلة فهم. والوغد: الأحمق الخسيس. وأبصرهم عم: أي أبصرهم بالأمور أعمى القلب. وأسهدهم فهد: أي أسهرهم وأيقظهم ينام نوم الفهد، وبه يضرب المثل في كثرة النوم. والقرد: يضرب به المثل في الجبن والحذر. انظر: ثمار القلوب، الثعالبي، ص ٤٠٠).

(٢) شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ٢/٩٣. وانظر داليته في هجاء كافور في المصدر٢/١٤٤.

وَصَـرْتُ أَشُـكُّ فِيمَـنْ أَصْطَفِيـهِ لِعِلْمِـي أَنَّـهُ بَعْـضُ الأَنَـامِ[1]

إنه يضع الناس جميعهم في دائرة واحدة، ويضع نفسه في دائرة أخرى، الأولى تمتلئ في خداعها ونقصها، والأخرى تمتلئ في وفائها وفضيلتها. إن الفئة الأولى فسد ودّها، وصارت تهش وتبش بوجوهها وتضمر في سرائرها الخبث لنفسها ولغيرها، إنه يحذر الناس من تلك الابتسامة العريضة التي قد يراها الناس على وجوههم؛ لأنها ابتسامة براقة تخفي وراء ظلالها الخديعة والغدر، لكن الشاعر لا مناص له من أن يعاملهم بمثل معاملتهم، ليس له من سبيل إلى الخلاص منهم، ولذلك يبتسم إليهم جزاء على ابتساماتهم. إنه يتعامل بقانون التبادل والمماثلة، ليس من باب ردّ الجميل بالجميل، والصفح عن المسيء، ولا من باب المصانعة والمجاملة، إنما من باب تبادل الخبث بالخبث، والموارية بالموارية، والضحك على اللحى، وهذا ما لا يؤمن به، إنما عليه أن يتنازل عن بعض مبادئه وقيمه مضطراً، طالباً الخلاص من الخداع، والنجاة من الوقيعة؛ لأن الأخلاق والقيم قد انعدمت، والفساد قد عمّ. إنه يعود من جديد كنتيجة حتمية لما توصل إليه فيقسم الناس الذين وضعهم في دائرة واحدة مرغماً إلى قسمين، الأول: من يصطفيه هو. والآخر: الأنام جميعهم. أما الشاعر فكأنه من عالم آخر، وهو خارج الدائرة البشرية، لأن أهدافه غير أهدافهم، وغاياته غير غاياتهم، فهم من وجهة نظره يفتقرون إلى الخلق الذي هو عمود الإنسانية؛ لأن الفساد قد عمّ فيهم. وعلى الرغم من محاولته اليائسة في اصطفاء فريق منهم ــ بل أحد منهم ــ لاتخاذه صديقاً، فإنه لا يثق به البتة لمعرفته اليقينية أنه من جملة الخلق، الذين حكم عليهم بالفساد.

وصفه للحسَّاد:

لا شك أن المتنبي يمثل دور العالم الاجتماعي بل هو عالم حقاً، يعرف ما يدور حوله، يدرس الأشياء ويتعمقها، ويسبر أغوارها، ويقلبها، ويحللها ويفسرها، ويربط بينها في ذاتها وما يحيط بها من أشياء وظواهر وعوامل ومؤثرات، ثم يصدر الأحكام

(١) السابق٤/٢٧٤.(الخب: الخداع). وانظر أمثلة أخرى، تفيد بأنه عالم من علماء النفس٤/٢٩٥و ٤/٢٦٥.

والحلول التي يراها مناسبة للنهوض بهذا المجتمع الذي نخره الفساد والجهل، وهو بحاجة إلى ثورة تبدأ من الداخل قبل الخارج، تبدأ من النفس والذات قبل إصلاح المجتمع، إنها نقمة المتنبي على أبناء عصره، إنها ثورة تمثل غيرته على هؤلاء الناس الذين استمرؤوا التعاطي بالحسد والحقد والضغينة والجهل، ولذلك أخذ يرسم خطوطاً واضحة بينه وبينهم في عدم التكافؤ والتماثل والتشابه؛ لأنه يمثل ثورة اجتماعية تدعو إلى نشر الفضيلة ونبذ الرذيلة، في مجتمع يتمنى أن يزيل ما يمتلكه الآخرون من الأدب والعلم والكرامة والعزة والإباء والعزيمة؛ لأنه يعجز عن امتلاكها، بل يريد أن يبقى في جهله وغبائه دون محاولة منه للسعي في نفض ما ران على النفس من النقائص والعيوب. وقد تصدى الشاعر إلى وصف الحساد بالجهل المطبق، بقوله:

أَمَاتَكُمُ مِنْ قَبْلِ مَوْتِكُمُ الْجَهْلُ وَجَرَّكُمُ مِنْ خِفَّةٍ بِكُمُ النَّمْلُ(١)

إن أعداءه كُثر، يحاول بين الفينة والفينة كشفهم، للتنبيه على مكرهم وخداعهم وغدرهم، ولما كان هؤلاء يتصفون بهذه الصفات، راح ينعتهم بالجهل، الذي يساوي عنده الموت؛ لأن الجهل أماتهم وبلّد عقولهم، وجعلهم حمقى خفيفي العقول قبل أن يموتوا ويفارقوا الحياة، فجهلهم موت لهم، إذ لم يَعُدْ لهم وزن ولا قدر ولا قيمة، ولا حتى كينونة، ولما أصبحوا بهذه الحال من خفة عقولهم فإن النمل تمكّن من جرهم.

إنه بعبقريته يكتشف من الأمور ويدركها ما لا يمكن للإنسان العادي أن يكتشفها ويدركها، مع أنه قد يراها ويعرف عنها، فهو بذكائه الخارق يتلمس جوانب النفوس، وما تنطوي عليه، ويعرف ما يدور حوله في هذه الحياة، ولذلك يعبر عما وراء الأشياء من خلال سبر أغوارها، ومعرفة خفاياها. إذاً، هو يعبر عن خفايا المعرفة، لا المعرفة المعروفة لدى البشر؛ لأنها ترتبط مع النفس بمعاناة الذات، وتتحد معها، وتذوب فيها، **فتصبح تلك الخفايا انفعالاً في النفس تعبر عنها بألفاظ مسيطرة على المعنى، يقول:**

قِفَا تَرَيَا وَدْقِي فَهَاتَا الْمَخَايِلُ وَلا تَخْشَيَا خُلْفاً لِمَا أَنَا قَائِلُ
وَمَنْ جَاهِلٍ بِي وَهْوَ يَجْهَلُ جَهْلَهُ وَيَجْهَلُ عِلْمِي أَنَّهُ بِيَ جَاهِلُ
وَيَجْهَلُ أَنِّي مَالِكُ الأَرْضِ مُعْسِرٌ وَأَنِّي عَلَى ظَهْرِ السِّمَاكَيْنِ رَاجِلُ

(١) السابق ٣٧٨/٣.

تُحَقِّرُ عِنْدِي هِمَّتِي كُلَّ مَطْلَبٍ وَيَقْصُرُ فِي عَيْنِي الْمَدَى الْمُتَطَاوِلُ
وَمَنْ يَبْغِ مَا أَبْغِي مِنَ الْمَجْدِ وَالْعُلا تَسَاوَى الْمَحَايِي عِنْدَهُ وَالْمَقَاتِلُ[1]

إنه يصف الحساد بالأراذل، ويضعهم في طبقة الأخساء؛ لأن ما دأبوا عليه يتصف بالخسة والحقارة والرذيلة. فهذه الطبقة تحاول أن تظهر نقائص المتنبي، وترميه بما يعيبه، لكن العيب يرتد عليهم. أما الطبقة الثانية فإنها تمثل صنفاً آخر من الناس، وهم الذين يحاولون إلحاق النقيصة به، لكنهم غير قادرين على ذلك؛ لأن ما يقومون به من تسديد السهام نحوه لا يحدث أثراً البتة؛ لأن ما يرمونه به عبارة عن قطعة من القطن. أما الطبقة الثالثة فإنها تضم طبقة الجهلاء الذين غرقوا في جهلهم، ذلك أنهم لا يعرفونه، ولا يعرفون أنه جاهل بهم، ويجهلون أيضاً أنه يعلم أنهم جاهلون به. ويتضح هذا الجهل فيه أنهم لا يدركون أنه حينما يملك الأرض يعدّ نفسه معسراً مقارنة بمقتضى همته وعزيمته، ذلك أنه حينما يعلو السماء، ويركب السماكين يعد نفسه راجلاً؛ لأن همته تسمو على ذلك. إنه يقسم الأراذل، كما نلاحظ، إلى ثلاثة أقسام، يصب جام غضبه على القسمين: الأول والثاني، يحقرهما، ويسحقهما، ولا يقيم وزناً لهما، لأن ما يصدر عنهما لا يحدث أثراً بل يرتد عليهما. أما القسم الثالث وهو الأخير فكأنه يتعامل معه بنوع من الشفقة؛ لأنه وإن كان من طبقة هؤلاء فإنه جاهل لنفسه ولغيره، وهذا الجهل هو الذي قاده للوقوع في رذيلة هؤلاء. إنه مُغَرَّرٌ به، لا يعرف حقائق الأمور، ولذلك أخذ الشاعر يعلمه بمكانته وقوة عزيمته وهيبته. بهذه الفلسفة فلسفة جنون العظمة يعيش المتنبي ويحيا، ينادي بها، ويدعو إليها، ويحث عليها؛ لأن الدنيا من وجهة نظره، تحكم بمنطق القوة لا بقوة المنطق، وعلى الإنسان أن يكون قوياً حتى يحمي جانبه، ويحقق ما يصبو إليه، فهو يأمل من أمته أن تتمسك بالقوة. إن هذه المبادئ تبحث في مشكلة تأخر المجتمع، وتدهور معنى الإنسانية، وفقدان الذات، التي

(١) السابق ٣/ ٢٩١ــ٢٩٤. (الودق: المطر. وهاتا: هذه. والمخايل: السحابة الخليقة بالمطر. والخلف: إخلاف الوعد. والمحايي والمقاتل: جمع المحيا والمقتل. وهما مصدران ميميان بمعنى الحياة والقتل). وانظر موقفه من غباء الناس وجهلهم: المصدر نفسه ١/١٤٤و٣٦٥ .

يفتخر بها المتنبي، وينعاها على الناس جميعاً. انظر إلى قوله في مدح سيف الدولة، وقد أمر له بفرس وجارية:

وَأَبْلِغْ حَاسِدَيَّ عَلَيْكَ أَنِّي كَبَا بَرْقٌ يُحَاوِلُ بِي لَحَاقَا
وَهَلْ تُغْنِي الرَّسَائِلُ فِي عَدُوٍّ إِذَا مَا لَمْ يَكُنَّ ظُبًى رِقَاقَا
إِذَا مَا النَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَبِيبٌ فَإِنِّي قَدْ أَكَلْتُهُمُ وَذَاقَا
فَلَمْ أَرَ وُدَّهُمْ إِلاَّ خِدَاعاً وَلَمْ أَرَ دِينَهُمْ إِلاَّ نِفَاقَا[1]

إن المتنبي يحسن التعامل مع البشر على اختلاف أنواعهم ومراتبهم، فها هو ذا يستخدم صيغة الأمر لولي نعمته، طالباً منه حمل رسالة منه إلى حساده. وقد تيقن أن الحساد لم يعد ينفع معهم الرسائل أو التهديد، ولا يكفهم عمَّا هم فيه من الغي إلا القتل بالسيف، معتمداً على أن آخر الطبّ الكيّ؛ لأنه تذوّقهم وذاقهم وعرف حقيقتهم من خلال ممارسة وخبرة، ولذلك كان من حقّه بعد هذه التجربة الميدانية أن يصدر الحكم عليهم، بأنه رأى ودَّهم غشّاً وخداعاً، ودينهم نفاقاً، أي: يسترون الكفر بقلوبهم، ويظهرون الإيمان بألسنتهم ، وقد جهلوا أن "الدين المعاملة". ونلاحظ أنه لم يعد يتحدث عن أزمة أخلاق وقيم فحسب بل تجاوز ذلك إلى أزمة دينية، وهي أشد وأعظم من الأزمة الأولى.

تحذير من دسائس الوشاة وحسد الحساد:

إن المتنبي يدرك بل يتفهم بعمق واقع النفس البشرية، ويظهر قدرته على تصوير الحالة النفسية عند الناس من خلال تصرفاتهم، وبما أنه ينشد مجتمعاً فاضلاً يقوم على الحب والإخاء والوفاء، فإنه يحذر من غدر الناس، وذلك بنقل تجربته من نفسه إلى نفوسنا بقوله:

وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ لِلنَّاسِ تَسْتُرُهُ وَلا يَغُرَّكَ مِنْهُمْ ثَغْرُ مُبْتَسِمِ
غَاضَ الْوَفَاءُ فَمَا تَلْقَاهُ فِي عِدَةٍ وَأَعْوَزَ الصِّدْقُ فِي الإِخْبَارِ وَالْقَسَمِ[2]

(١) السابق ٣/٤٧.
(٢) السابق ٤/٢٩٥.

إن الشاعر يعاني من الناس كل الناس؛ لأنهم في أزمة أخلاق وقيم، إنه يُلقي على عاتقه تحمل المسؤولية تجاه المجتمع، لمعرفته إياه على حقيقته، إنه يحاذرهم، ويقي نفسه منهم، وعليه أن يبلغهم رسالته التي آمن بها من أجل بناء مجتمع يقوم على الأمن والأمان، يسوده الإخاء والإخلاص والتفاني، لذلك أخذ يحذر الناس من الناس، شريطة أن يستر الإنسان حذره منهم، وعليه ألا يغتر بابتسامتهم العريضة؛ لأنهم يضمرون في قلوبهم العداوة والغدر والخديعة، وهو ما لا يبدونه، ويسرون ما لا يعلنون. ويذهب الشاعر إلى أكثر من ذلك، بل يوغل في التشاؤم لانعدام الوفاء، الذي لم يعد له وجود، ذلك أن الإنسان لا يجد وفاء لوعد عند أحد، حتى إن الصدق لا وجود له في إخبارهم ولا أيمانهم.

مفهوم الوفاء عند الشاعر، وسنّ قانون الصداقة بين الأصدقاء:

يبدو أن المتنبي لا يؤمن بما عبَّر عنه الشعراء القدامى من أمثال النابغة الذبياني وبشار بن برد بشأن ضرورة أن يتمسك الإنسان بالحلم، وأن يتغاضى عن أذى الآخرين ونقصهم؛ لأنه يستحيل على الإنسان أن يتصف بالصفاء والتكامل، فالكمال لله وحده. والمتنبي ينادي ببناء مجتمع فاضل، يقوم على رؤيته وتفكيره، لا على رؤية الناس، ويرى أن ذلك يتمثل في أن يكون الأصدقاء كاملين لا نقص فيهم ولا عيب، يقول:

عَجِبَ الْوُشَاةُ مِنَ اللُّحَاةِ وَقَوْلِهِمْ دَعْ مَا بَرَاكَ ضَعُفْتَ عَنْ إِخْفَائِهِ

مَا الْخِلُّ إِلاَّ مَنْ أَوَدُّ بِقَلْبِهِ وَأَرَى بِطَرْفٍ لا يَرَى بِسِوَائِهِ(١)

إنه لا يرى من حوله إلا نوعين من الناس: الوشاة النمامين، واللّحاة اللائمين، يتعجب النوع الأول من قول النوع الآخر، والمهم في الأمر أن المتنبي يضع قانون الصداقة، ويوضح مفهومه المتمثل في أن الصديق هو من وافق صديقه في كل شيء دون قيود أو حواجز، فإذا أراد أن يحبّ أحبّ بقلب صديقه، وإذا نظر فكأنه ينظر بعينه أيضاً، إنه يدعو إلى الإخلاص والتفاني والوفاء والإيثار، وهذا ما كان يفتقر إليه في زمانه، إذ عزّ الصديق. وبسبب هذا الوعي وهذا التفرد وهذا التميز كثر الحساد من حوله.

(١) شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ١/١٣٠.

بيان أثر الحسد :

يقال: إن أبا فراس الحمداني قال يوماً لسيف الدولة: إن المتنبي متشدق كثير الإدلال عليك، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد، ويمكن أن تفرق مئتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره، فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام، وعمل فيه، وكان المتنبي غائباً، وبلغته القصة، ولما حضر دخل على سيف الدولة وأنشده قصيدته التي مطلعها:

أَلا مَا لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ عَاتِبَا فَدَاهُ الْوَرَى أَمْضَى السُّيُوفِ مَضَارِبَا

قيل: فأطرق سيف الدولة ولم ينظر إليه كعادته فخرج المتنبي من عنده متغيراً، وحضر أبو فراس وجماعة من الشعراء فبالغوا في الوقيعة في حق المتنبي، وانقطع أبو الطيب بعد ذلك، ونظم القصيدة التي أولها:

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمُ

ثم جاء وأنشدها وجعل يتظلم فيها من التقصير في حقه، فهم جماعة بقتله في حضرة سيف الدولة لشدة إدلاله، وإعراض سيف الدولة عنه، وقد عرض بأبي فراس وبالحاضرين، واستمر في إنشاده دون أن يرد على أحد منهم، ومن الذين حرصوا على مقاطعته، واتهامه... وضجر سيف الدولة من كثرة مناقشته في هذه القصيدة وكثرة دعاويه فيها فضربه بالدواة التي بين يديه، فقال المتنبي في الحال:

إِنْ كَانَ سَرَّكُمُ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمُ أَلَمُ

فلم يلتفت سيف الدولة إلى ما قاله أبو فراس، وأعجبه بيت المتنبي ورضي عنه في الحال، وأدناه إليه، وقبل رأسه، وأجازه بألف دينار، ثم أردفها بألف أخرى...[1]

---

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي، ص٨٧ــ٩١. وانظر القصيدة البائية في: شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ١٩٩/١ــ٢٠٠. والميمية في المصدر السابق ٨٠/٤ــ٩٠. وانظر: ديوان أبي الطيب المتنبي، تحقيق د.عبد الوهاب عزام، ص ٣٢١ وما بعدها.والفن ومذاهبه، د.شوقي ضيف، ص٣٠٧.

ويذكر ابن خلكان في كتابه: وفيات الأعيان(١٢٣/١): "أنه كان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء كل ليلة فيتكلمون بحضرته، فوقع بين المتنبي وبين ابن خالويه النحوي كلام، فوثب ابن خالويه على المتنبي فضرب وجهه بمفتاح كان معه، فشجه، وخرج ودمه يسيل على ثيابه فغضب وخرج إلى مصر...". وانظر قصة إنشاده قصيدته الدالية في المصدر نفسه ١٢٤/١.

إن الحسد يسري في النفوس سريان المرض في الجسم، وينتشر انتشار الأوبئة التي لا تبقي ولا تذر، ويدمر تدمير الحريق الذي يأكل الأخضر واليابس، ويترك آثاراً لا تحمد عقباها في الحاضر والمستقبل. إن المتنبي عانى من الحسد، وحاول التخلص منه والبعد عنه، لكنه كان يلاحقه في كل مكان، يقع فيه تارة، ويعاني من آثاره تارة أخرى، انظر معي قوله في سيف الدولة:

يَا أَعْدَلَ النَّاس إلاَّ في مُعَامَلَتي ... فيكَ الْخصَامُ وَأَنْتَ الْخَصْمُ وَالْحَكَمُ!
إنْ كَانَ سَرَّكُمُ مَا قَالَ حَاسدُنَا ... فَمَا لُجُرْح إذَا أَرْضَاكُمُ أَلَمُ
وَبَيْنَنا لَوْ رَعَيْتُمْ ذَاكَ مَعْرفَةٌ ... إنَّ الْمَعَارفَ في أَهْلِ النُّهَى ذمَمُ
كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْباً فَيُعْجزُكُمُ ... وَيَكْرَهُ اللهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرَمُ
مَا أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنُّقْصَانَ عَنْ شَرَفي ... أَنَا الثُّرَيَّا وَذَان الشَّيْبُ وَالْهَرَمُ
شَرُّ الْبلادِ مَكَانٌ لا صَدِيقَ بِهِ ... وَشَرُّ مَا يَكْسِبُ الإنْسَانُ مَا يَصِمُ[1]

يرى المتنبي أنه يعطي أكثر مما يأخذ، يعطي الشهادات، ويصنع التاريخ، ويسجل فيه من يشاء، إنه يملك كل شيء، قد يأخذ المال، لكنه لا يساوي شيئاً بالنسبة إلى ما يعطيه. ولذلك كان عتابه للأمير سيف الدولة عتاب النظير للنظير، بعد أن وشى به أبو فراس وبعض منافسيه، وتأثر سيف الدولة بهذه الوشاية. ونلاحظ أنه يعد نفسه أعلى منزلة منه؛ لأنه هو الشاعر صاحب الرسالة العظيمة التي تسجل التاريخ، وتدون الأعمال، وتخلد المآثر، وتبني الأمجاد، وتبقيها خالدة على مر الأزمان. إنه يعبر عن مدى ثورته ونقمته، لا استعطافه وتذلُّله، لا تتنازع النفس بين الحفاظ على الكرامة وبين الاحتفاظ بالحظوة لدى سيف الدولة، لإيمانه المطلق بأن الترفع هو إثبات الذات، ولذلك نجد نفسيته نفسية مثالية تؤمن بالمبادئ والقيم، فهي تحقق أسمى معاني الإنسانية في رفعتها وعزها وكرامتها. إنه آثر خسران المال على خسران الكرامة، وآثر التمرد والعصيان على السلامة والمنفعة، إنها سيكولوجية عجيبة، تخالف الكون الذي يقوم على الماديات؛ لأنها تؤمن بالحقيقة الإنسانية التي تقوم على العفة والكرامة. ولذلك بقي

(١) شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ٤/ ٨٣ـ٨٩. (ويصم: يعيب).

هذا النوع من الشعر خالداً؛ لأنه شعر إنساني، يخلص النفس الإنسانية من المعايب، لتسمو الفضائل بها.

إنه شاعر يعرض الحال في هذه الأبيات التي يوظفها من خلال هدف الشعر الفني، والتعبير الأدبي، والتصوير الوجداني الرائع لبيان المعاناة، وإظهار الاحتجاج والنقمة. لم يكن الشاعر فيها مدافعاً عن نفسه بل كان يعاتب معاتبة الندّ للندّ، ثم تطور إلى الهجوم، وانتقل إلى التعالي، حتى وصل إلى الفِراق الذي يريحه من عناء الشرور ــ في ظل الأذى والنقص والعيب ــ التي يلقاها من عِلية القوم، ويراها في بعض الأصدقاء، ويلمسها في بعض الناس. إنه لا يدافع عن نفسه ، ولا يهمه إقناع الآخرين ببراءته؛ لأن عليهم أن يعرفوا أنه يتصف بالكمال، وهذه صفة لا تتوافر فيهم، ما حدا به أن يبحث عن صحبة الكاملين الذين ليس فيهم نقص ولا عيب، وكأنه لا يؤمن بأن الإنسان قد يرتكب الخطأ، وكل ابن آدم خطّاء، وأن النقص طبيعة في البشر. وأغلب الظن أن المتنبي رسم في ذهنه الكمال المطلق الذي ليس فيه عيب أو خلل، وآمن به، ولذلك أخذ يبحث عنه في عالم الفضيلة، إنه يحلم، ومن حقه أن يسعى إلى تحقيق ذلك الحلم . كما لاحظنا أنه يطلب العدل، لكنه لم يوفق إلى تحقيقه؛ لأن العدل سيصدر من الخصم والحكم في آن واحد، لذلك نراه يشن حملة شعواء على الذين حقدوا عليه، وأوغروا صدر صاحب الحكم، ومع ذلك فإنه لم يظهر ضعفه، ولم يستعطف، ولم يطلب الرحمة والعفو؛ لأنه يرى أن هذا ينقص حقه، ويقلل من مهابته، ويبدد عزيمته، ويقف حائلاً دون تحقيق غايته المتمثلة في المجد والعلا وكرامة النفس وعزتها. وهذا النوع من الشعر لا يمكن أن نعده من باب الحيل الذهنية، أو الإيهام الظاهر بتوليد المعاني غير الواقعية، إنما هي مبالغة فنية، تتطابق في الواقع مع النفس في أحاسيسها وشعورها وانفعالاتها وإيمانها المطلق بما تعبر عنه؛ لأنها لا تؤمن بالمستحيل.

والمتنبي لا يعدم الحيل في التخلص من الحساد ومن شايعهم وأخذ بأيديهم، لكننا نلحظه في قوله لسيف الدولة:

وَمَا لِكَلامِ النَّاسِ فِيمَا يُرِيبُنِي أُصُولٌ وَلا لِلْقَائِلِيهِ أُصُولُ
أُعَادِي عَلَى مَا يُوجِبُ الْحُبُّ لِلْفَتَى وَأَهْدَأُ وَالأَفْكَارُ فِيَّ تَجُولُ

سِوَى وَجَعِ الْحُسَّادِ دَاوِ فَإِنَّهُ إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ
وَلا تَطْمَعَنْ مِنْ حَاسِدٍ فِي مَوَدَّةٍ وَإِنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وَتُنِيلُ[1]

يكبو، بل قد أخذ يتوجع بمرارة من الحساد. إن البيت الأول يمثل ظاهرة غريبة في حياته؛ لأننا عرفناه مهاجماً لا مدافعاً، عهدناه يتخلص من كل المواقف بحكمة، شاهدناه يحقق ذاته، وينجو بنفسه بكل أمن وسلام. لكنه ها هنا يقف موقف المدافع عن نفسه، موضحاً أن ما يتحدث به حساده فيما يتهمونه به، لا أصل له البتة؛ لأنه كذب وباطل، وكأنه يربط هذا المعنى بمعنى آخر، هو أن الحساد لا أصل لهم ولا نسب، فهو يربط بين الأصل والكذب، ويرى أن الإنسان الأصيل، كريم المحتد لا يصدر عنه الكذب، إنما يصدر من لا أصل له في القول عن من لا أصل له في النسب. ولذلك إن هؤلاء الذين لا محتد لهم ويحملون عليه ويتهمونه ويعادونه بسبب علمه وفضله وتقدمه في صواب الرأي، ورجاحة العقل، ونظم الشعر، كان أولى لهم أن يحبوه بدلاً من مناصبته العداء، وكيل التهم له. ولما كان الأمر كذلك فإنه لا يفكر في التعرض لهم ترفعاً، ولا الرد عليهم تنازلاً، على الرغم من إظهار سكونه وهدوئه، لكن الأفكار ثائرة كالبركان، لا تعرف طريقاً إلى السكن. إن هذه الصفات التي يتمتع بها المتنبي لم تَحُل دون بيان أثر الحسد في قلوب البشر؛ لأن الحسد داء عضال إذا حلّ في قلوبهم ، فلا أمل في زواله، ولا أمل في البرء منه. ومن خلال هذا التحليل النفسي، الذي أبداه هنا، فإنه وصل إلى نتيجة حتمية تتمثل في أن الحاسد لا يمكن الطمع في مودته؛ لأنه جبل على الحقد والضغينة والعداوة، ولا يمكن أن يتخلص من هذه الصفات، ولو بذل المحسود له العطاء، وأظهر المودة، وهذه فكرة تقوم على أن الداء الدفين لا يمكن مداواته أو استئصاله، مهما بذل الإنسان جهده؛ لأنه سرى وانتشر واستشرى.

يقال: اتصل قوم من الغلمان بابن الإخشيد مولى كافور، وأرادوا أن يفسدوا الأمر على كافور، فطالبه بتسليمهم إليه، فسلمهم بعد أن امتنع من ذلك مُدَيْدَة ما سبب بينهما وحشة، وبعد أن تسلمهم كافور، ألقاهم في النيل ثم اصطلحا، فقال:

حَسَمَ الصُّلْحُ مَا اشْتَهَتْهُ الأَعَادِي وَأَذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الْحُسَّادِ

(١) السابق ٢٣٠/٣. وانظر مثالاً آخر في المصدر نفسه ٢١٦/٤.

وَكَـلامُ الْوُشَاةِ لَيْـسَ عَلَـى الأَحْبَـ ـابِ سُلْطَانُـهُ عَلَـى الأَضْـدَادِ
إِنَّمَـا تُنْجِـحُ الْمَقَالَـةُ فِـي الْمَـرْ ءِ إِذَا صَادَفَـتْ هَوىً فِـي الْفُـؤَادِ[1]

نلاحظ أن الحساد لم يعد وجودهم يتمثل في الحسد، وما ينتج عنه عند المحسود مباشرة، بل أصبح يؤتي ثماره عند هؤلاء الذين يتمتعون بالسلطة والحكم، ما يحول دون تحقيق الأهداف والغايات، ولو بقي الحسد يجابه المحسود، لكان الأمر هيناً، لكنه تجاوز ذلك إذ أصبحت تبعاته تلقي بأعبائها وأثقالها عند الآخرين، لتوغر صدورهم على المحسود، الذي يلقى كل ضيم وقهر وخسارة من جراء ذلك. فها هو يشير إلى محاولتهم في تهييج الشر؛ لأنهم اشتهوا ذلك، وسعوا فيه، ولو أن كافوراً لم يكن متنبهاً إلى هذا الأمر لحصلت القطيعة، وربما ترتب عليها أكثر من هذا التصور، ولحسن الحظ فإن المصالح تلاقت، والأهواء توافقت بين كافور والمتنبي، مما قطع الطريق على هؤلاء الحساد، لذلك أخذ الشاعر يعد كافوراً من أحبابه؛ لأنه لم يستمع إليهم، ولو كان من أعدائه لتأثر بوشايتهم. إن الشاعر يحقق بعض ما يطمح إليه ويطمع به، من خلال ادعائه بمعرفة النفوس، وما تنطوي عليه الضمائر، من خلال إشاراته إلى توافق الهوى، وتقارب المنفعة المتبادلة، وهذه من براعة الحيل عند المتنبي التي يحسن استخدامها في الأزمات لتحقيق أهدافه.

ويقال: إن سيف الدولة أنفذ إليه كتاباً بخطه إلى الكوفة، يسأله المسير إليه، فأجابه بقصيدة طويلة مطلعها:

فَهِمْـتُ الْكِتَـابَ أَبَـرَّ الْكُتُـبْ فَـسَمْعـاً لأَمْـرِ أَمِيـرِ الْعَـرَبْ

ومما جاء فيها:

وَمَـا عَاقَنِـي غَيْـرُ خَـوْفِ الْوُشَـاة وَإِنَّ الْوشَايَـات طُـرْقُ الْكَـذبْ
وَتَكْثِيـرُ قَـوْمٍ وَتَقْلِيلُهُـمْ وَتَقْرِيبُهُـمْ بَيْنَنَـا وَالْخَبَـبْ
وَقَـدْ كَانَ يَنْـصُرُهُـمْ سَمْعُـهُ وَيَنْصُرُنِـي قَلْبُـهُ وَالْحَسَـبْ[2]

(١) السابق ١٣١/٢. وانظر أمثلة أخر في المصدر نفسه ١٤٢/٢و١٤٥.
(٢) السابق ٢٢٥/١ــ٢٢٦ . (الخبب: ضرب من عدو الفرس).

إن المتنبي كان راغباً في المسير إلى سيف الدولة للالتحاق ببلاطه؛ ليكون تحت رعايته، ولكنه يدرك أمر الأعداء ويتنبه إلى مكائدهم، ولا يريد أن يكرر ما حصل له في السابق، إذ وجد الأعداء من حول سيف الدولة هم الأعداء أنفسهم لم يتغير شيء من ذلك، ولهذا يدرك خطر المسير، وتبعات تلبية الدعوة، فهو بين نارين: نار الشوق إلى ذلك الأمير الذي أعجب به أيما إعجاب؛ لأنه وجد فيه ما يحقق طموحاته السياسية، وآماله المستقبلي، ونار الألم والأسى الذي يعاني منه من جراء حقد الحساد الذين يحدقون بالأمير، ويوغرون صدره ضده، ولهذا أخذ المتنبي يبين أثر هؤلاء على نفسيته، ذلك أنهم كانوا السبب في بعده عن سيف الدولة، وهو لا يزال يعاني من السبب نفسه، إذ لم يحصل أي تغيير في مواقف الحساد، ولا في مواقف سيف الدولة نحوهم، فهو لا يزال يرعاهم ويقوم على أمرهم، وبناء على ذلك فإنه لم يجد المسوغات التي تدفعه إلى النهوض إليه؛ لأنه لا يزال خائفاً من هؤلاء الوشاة، الذين لا يعرفون طرقاً إلى الصدق وقول الحق، فديدنهم الكذب والخديعة، والبريء من أمثال المتنبي لا يأمن جانبهم البتة؛ لأنهم جبلوا على هذه العادة من الضغينة والحقد، ولم يقف المتنبي عند هذا الحد بل أخذ يتلمس الأعذار التي يراها موجبة لعدم الذهاب إليه، منها: أن الحساد والوشاة إذا علموا بأمر قدوم المتنبي فإنهم حريصون على تكثير معايبه ونقائصه، وتقليل مناقبه وفضائله، ولن يألوا جهداً في السعي إلى القطيعة والفساد. وكأني أرى المتنبي لا يأبه بذلك كله، ولا يقيم له وزناً لو كان سيف الدولة يزن الأمور، ولا يستمع لهؤلاء الحساد والوشاة، ولكن العائق الأساسي يتجلّى في أنه يعرف مكرهم ومدى خطورة نميمتهم ووشايتهم، وهو لا يزال يصغي إليهم، ويسمع منهم، وإن كان قلبه مع المتنبي يردفه في ذلك أيضاً محتده ونسبه. إن الشاعر يعيش في صراع داخلي، وهو في حيرة من أمره، لا يستطيع التخلص من هذه المعاناة التي تقلقه بل تعذبه، فقد فشل في حسم الخلاف الذي يتصارع بين العقل والعاطفة، العقل يأبى أن يتوجه إلى سيف الدولة لأنه يصغي إلى الحساد، ويعد هذا الإصغاء نصراً لهم، والعاطفة التي تدفعه بكل قوة إلى تلبية دعوة سيف الدولة لأنه يؤازره بقلبه، ويعضده في ذلك شرفه ونسبه وحسبه، ولكن العقل تمكن من تحقيق النصر على العاطفة، وهذا هو ديدن المتنبي الذي

يرجح إعمال العقل في كل شيء ، وكانت النتيجة اتخاذ القرار بعدم الذهاب، وهي النهاية الطبيعية المتوقعة التي تتفق وروح المتنبي ونفسيته، فهو يسير في اتجاه معاكس مضاد للحساد، فهو يسعى إلى نشر المثل العليا والفضائل وهم يسعون إلى الدسائس والنقائص، فكيف يجتمع معهم في حلبة واحدة؟

لا شك أن كلام الحساد مؤثر، يحدثون الضرر، ويشوهون الواقع، ويزيفون الحقائق، ويشعلون الفتنة، فها هو ذا يقارن بينه وبين نفسه ويشير إلى تأثر أهل السلطة بوشاياتهم، يقول:

تُطِيعُ الْحَاسِدِينَ وَأَنْتَ مَرْءٌ ... جُعِلْتُ فِدَاءَهُ وَهُمُ فِدَائِي
وَهَاجِي نَفْسِهُ مَنْ لَمْ يُمَيِّزْ ... كَلامِي مِنْ كَلامِهِمِ الْهُرَاءِ
وَإِنَّ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ تَرَانِي ... فَتَعْدِلَ بِي أَقَلَّ مِنَ الْهَبَاءِ
وَتُنْكِرَ مَوْتَهُمْ وَأَنَا سُهَيْلٌ ... طَلَعْتُ بِمَوْتِ أَوْلادِ الزِّنَاءِ(١)

يعاني المتنبي من الحساد معاناة شديدة، وهو قادر على الرد عليهم، وردعهم بأساليبه إذ كان يتفهم الأسباب التي تدفعهم إلى هذا الحسد، لكن الذي يؤرقه أكثر من ذلك، هو أثر الحساد وما يحدثونه من وقيعة، وما يترتب عليها من ضرر فادح، لا سيما إذا وافق الحسد هوى ذوي السلطة الذين يتقبلون سماعه، بل يقتنعون بقول الحساد، ويطيعونهم فيما ذهبوا إليه من المكر والخديعة. ويرى المتنبي أن على السلطان أن يترفع عن الإصغاء إلى الحساد، وألا يقتنع بما يوجه إليه من تهم؛ لأن السلطان أسمى من ذلك، فإذا كان هذا السلطان يتصف بالسمو والرفعة فإن الشاعر يجعل نفسه فداء له، والحساد فداء للشاعر، ولكن إذا لم يفرق السلطان بين كلام المتنبي وكلام الحساد الساقط الذي لا خير فيه فإنه بذلك يهجو نفسه؛ لأنه لم يكن فطناً في التمييز بين القولين. ويلح المتنبي على إظهار الحق، وتبرئة النفس بطريقة هجومية، ثم يسوّي بين السلطان وبين هؤلاء الشعراء الأخساء الذين لا يقيم لهم وزناً لأنهم أخفّ من الهَبَاء، وهو الغبار الذي يُرى في شعاع الشمس. والأعجب من ذلك أن السلطان ينكر موت الحساد، وهو يعرف أن الشاعر هو الطالع عليهم بموتهم كما يطلع سهيل.

---

(١) السابق ١/١٣٩ــ١٤٠.

موقفه من الحساد :

إن موقف المتنبي من الحساد وعدم مبالاته بهم جدير بأن نشير إليه هاهنا، على الرغم من عدم ثبات هذا الموقف، لكنه يسجل مرحلة من المراحل التي مرّ بها مع الحساد. فالنموذج الشعري الذي نحن بصدده يمثل الفخر بالنفس، وعدم اهتمامه بالحساد، ووصفهم بالسفلة والأراذل، وهذا من باب النقمة عليهم، وكأنه نصب نفسه مصلحاً اجتماعياً ووصياً على الناس يميز بينهم ويصنفهم كما يحلو له؛ لأنه لا يدعوهم إلا للفضيلة والخير وجادة الصواب، من أجل حياة أفضل، وعليهم أن يعرفوا قيمته الإنسانية والفنية والاجتماعية... يقول:

أَنَا الَّذِي بَيَّنَ الإِلَهُ بِهِ الْـ ... أَقْدَارَ والْمَرْءُ حَيْثُمَا جَعَلَهْ
جَوْهَرَةٌ يَفْرَحُ الْكِرَامُ بِهَا ... وَغُصَّةٌ لا تُسِيغُهَا السَّفَلَهْ
إِنَّ الْكِذَابَ الَّذِي أَكَادُ بِهِ ... أَهْوَنُ عِنْدِي مِنَ الَّذِي نَقَلَهْ
فَلا مُبَالٍ وَلا مُدَاجٍ وَلا ... وَانٍ وَلا عَاجِزٌ وَلا تُكَلَهْ
وَسَامِعٍ رُعْتُهُ بِقَافِيَةٍ ... يَحَارُ فِيهَا الْمُنَقِّحُ الْقُوَلَهْ
وَيَظْهَرُ الْجَهْلُ بِي وَأَعْرِفُهُ ... وَالدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمِ مَنْ جَهِلَهْ[1]

إنه يفضح أمر هؤلاء الوشاة الذين وشوا به إلى أبي العشائر الحمداني، إنه يبين كبرياءه وعظمته في نفسه، إذ لا يتمكن أحد أن يتقدم منزلته التي خصها الله بها، فهو يمثل نقيضتين، وهما فضيلتان له، نقيصتان في غيره، الأولى: أنه جوهرة يتزين الناس بها، ذلك أنه ينوه بمناقبهم، ويشيد بذكر محاسنهم ، والأخرى: أنه غصة في حلوق الأخساء الذين لا يقدرون على استساغته؛ لأنه يكشف عن نقائصهم وعيوبهم. هذا هو المتنبي الذي يرى أن الله قد بيّن به أقدار الناس في الفضل؛ لأنه لا يتملق لأحد، ولا يمدح أحداً إلا بما فيه، ولا يصف إلا بما يعرف، لذلك من أكرمه دلّ على شهامته ومروءته، فهو من أهل الفضل، ومن استخف به دلّ على حسده ولؤمه. فالفئة الأولى تفرح به؛ لأنه جوهرة وزينة لهم، ينوه بمناقبهم، ويشيد بمحاسنهم، أما الفئة الأخرى

(١) السابق٣/٣٨٤ــ٣٨٧. (تكله: بمعنى وكلة، وهو الذي يكل أمره إلى غيره). وانظر مثالاً آخر في المصدرنفسه١/١٤٩).

فهي لا تقدر على استساغته؛ لأنه غصة في حلوقهم ، كاشفاً عن نقائصهم، فاضحاً لألاعيبهم. ويرى أن الكذب أهون عنده من راويه وناقله، ومع ذلك فإنه لا يقيم وزناً للفريقين، مبيناً موقفه منهم بقوله: أنا غير مبالٍ بأعدائي، ولا ساتر لعداوتي، ولا مقصر فيما يجب أن أقوم به، ولا عاجز عن رد إساءة المسيء، ولا ضعيف أَكِلُ أمري إلى غيري لضعف بي أو لتقصير في همتي. إنه يروع ذلك الواشي ويخيفه بقافية سائرة، ويدب الرعب في قلبه من قوتها وشدة وقعها، ويحيِّر الشاعر المفلق في حسنها. ونلاحظ أنه لأول مرة يشير إلى وجود شاعر غيره على وجه الأرض، وهذا من باب التهكم والازدراء والسخرية. إنه يرى ذلك الواشي الذي يحاول أن يظهر جهله به، لكنه يعرفه، مثله مثل الدر الذي يبقى دراً برغم جهل الإنسان به. إذن هو لا يبالي بهذا ولا ذاك، ويعد خوض الناس في الحديث عنه تقوية له؛ لأنه يستحق أن يتحدث عنه، ولو لم يكن بهذه الأهمية وبهذه العزيمة والهمة والمكانة لما تحدث عنه الناس، فهو مثير للجدل، مستحق للتقييم. ولما كان الأمر كذلك فإنه لا بد من وجود الحساد له، والوشاة ضده خوفاً وقهراً وحقداً وطمعاً في التخلص منه.

ترفعه عن الحساد :

على الرغم من الأوصاف التي رمَى بها المتنبي حساده، فإنه لا يزال مسيطراً على شعره، كابحاً لجماح ألفاظه؛ لأنه يعف عن المعاني والألفاظ المقذعة. أما ما رأيناه من أوصاف فإنه يرى أن أصحابها استحقوا ذلك؛ لأنه لم يقل فيهم إلا الحق، وما كلامه إلا نفثات وآهات ضاق بها الصدر، فلفظها دراً غنية بالمعاني العميقة والدلالات البعيدة تكشف حقد هؤلاء الحساد.(١)

(١) إن خصومه لم يكتفوا بالجهر بعداوته، ولكنهم سعوا عند الأمير سيف الدولة الذي أخذ يسمع لهم، وكأنهم أملوا فيه أن يميل إليهم بدلاً من ميله إلى المتنبي. ويذكر أن ذات مرة اضطرب مجلس سيف الدولة عندما أنشده قصيدته الميمية في عتابه ــ انظرها في : شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ٤/٨٠ــ٩٠ــ والتي أراد بها أن يسترضيه ، لكنه غاظه أكثر مما أرضاه لأنه عاتبه الند للند وعرض به ، فاشتد غضب الحاشية ــ انظر: مع المتنبي، د.طه حسين، ص ٢٦٣ ــ وخرج المتنبي وترك وراءه بغضاً وغيظاً وحنقاً.

إن الشاعر يشتق المعاني من ذاته ونفسيته التي عانت من هؤلاء الحساد، فهو يعبر عن القيم التي يؤمن بها، ويرى أن المجتمع الذي يعيش فيه يفتقر إلى المعاني الإنسانية من قيم وأخلاق، وأن الحياة لم تعد الكرامة فيها مقياساً للتفاضل بين الناس، ولذلك على المرء أن يعز نفسه، ويثبت وجوده، حتى يفرض احترامه على الناس، يقول:

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بالسُّوء يَذْكُرُني وَلا أُعَاتِبُهُ صَفْحاً وَإِهْوَانَا
وَهَكَذَا كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا
مُحَسَّدُ الْفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثَرِي أَلْقَى الْكَمِيَّ وَيَلْقَانِي إِذَا حَانَا[1]

نرى أن نبرة الصوت بدأت تعلو؛ لتملأ الرحب، وهي ممتلئة بالفخر، مشحونة بالتهديد والوعيد، فها هو ذا يتحدى هؤلاء الذين يذكرونه بالسوء في غيبته، فإذا ما طلع عليهم وظهر فإنهم يسجدون له تعظيماً لجلالة قدره، ويحترمونه لعزيمته وهمته، ويخضعون له خوفاً من سطوته. إنهم متلونون، ليس لهم مبدأ، يعيشون بأوجههم المقنعة، وأنفسهم المتقلبة، التي لا يحكمها ضمير، ولا تحتكم إلى الأخلاق. ولذلك فإنه يترفع عنهم، ويعرض عن عتابهم احتقاراً لهم وازدراء، حفاظاً على مكانته ورفعته، وتميزه وتفرده. ولم يكن هذا الأمر طارئاً عليه، إنما هو متأصل به من نعومة أظفاره؛ لأنه كان غريباً في وطنه وبين أهله، لعدم وجود النظير، شأنه شأن النفيس الذي يكون غريباً حيثما وجد، ولا غرابة في ذلك؛ لأنه محسود الفضل، ذلك أن الحساد الأعداء يكذبون عليه خلفه ووقت خروجه من محفل بل في كل وقت. وكأنه يريد أن يقول: إنه شغلهم الشاغل، لا يتحدثون إلا عنه، ولا يفكرون إلا به، وليس لديهم عمل إلا تتبعه بالحسد والوشاية في كل مكان؛ لأنه جدير بالتفوق، وحقيق بالتميز، ومن اتصف بهذه الصفات توجهت أنظار الناس وعقولهم إليه. ويربأ المتنبي بنفسه عن الحساد والأعداء، ويترفع عنهم، ولا يجاريهم في غيهم وأخلاقهم التي اعتادوا عليها، لما فيها من نميمة وفساد، إنه يشير إلى الأزمة الأخلاقية التي يعاني منها مجتمعه، ويبين مدى معاناته في التعامل مع هذا المجتمع، ومع ذلك فهو يرى أنه يتوجب عليه أن يتحلى بالصبر والعفو وسعة الصدر، يقول:

---

(١) السابق ٣٥٤/٤. وانظر مثالاً في هجاء رجل نبطي حسده على ما كان فيه ١٦٩/١ــ١٧٠.

وَأُكْبِرُ نَفْسي عَنْ جَزَاء بِغَيْبَةٍ وَكُلُّ اغْتِيَابٍ جُهْدُ مَنْ مَالَهُ جُهْدُ
وَأَرْحَمُ أَقْوَاماً مِنَ الْعِيِّ وَالْغَبَا وَأَعْذِرُ فِي بُغْضِي لأَنَّهُمُ ضِدُّ[١]

إنه لا يكافئ السيئة بالسيئة، بل يكظم غيظه، ويسمو بنفسه، ويترفع عن اغتياب عدوه؛ لأن الاغتياب يمثل جهد من لا جهد له ولا طاقة على مواجهة عدوه. وهو يضع نفسه في مقارنة مع هؤلاء الذين يتناولون أعراض الناس، فكلما سما بفضائله، انخفض هؤلاء بنقائصهم، وهم يمثلون فئة خسيسة وضيعة لا يستحقون من المتنبي التفاتة من أي نوع؛ لأنه أكبر من أن يفكر في الرد عليهم. ولكنه يشفق على نوع آخر من الناس ويرحمهم وإن كانوا ينتمون إلى الفئة الأولى، وذلك بسبب عيهم بالكلام، وعجزهم عن الإتيان بالحجة، وغبائهم المطبق. ونجد أن الشاعر يتلمس لهم العذر تلو العذر في تسويغ بغضهم له، لأنهم أضاد له، ولكن المتنبي لا يرى في نفسه أنه ضد لهم ليبغضهم، ولكنه يرى أنهم ضده يبغضونه، وهذه مفارقة عجيبة لا نجدها عند غيره من الشعراء الذين صبوا جام غضبهم، وكالوا السبّ والشتائم لأعدائهم.

نلاحظ السر في أن ترفع المتنبي دائماً يعود إلى تفوقه على حساده وأعدائه، لأنه لا يجد فيهم شيئاً يستحق الهجاء، ولهذا يجد أن الهجاء نفسه يعف عن أقدارهم.[٢] إنه يصور ما تعانيه النفس، ويرثي لحال الجهلة من الناس الذين خيّب ظنهم بالنزول إلى مستواهم، والرد عليهم، بل عدّ مجرد عذلهم مصيبة المصائب، يقول:

وَمَنَ الْبَلِيَّةِ عَذْلُ مَنْ لا يَرْعَوِي عَنْ غَيِّهِ وَخِطَابُ مَنْ لا يَفْهَمُ[٣]

إنه يتجاهل فئة من الناس، بل يعد لومها مصيبة وبلاء؛ لأنها لا ترعوي عن غيها، ولا تقلع عن جهلها، ولا تكف عن عادتها السيئة، وإن الأعظم والأدهى من ذلك هو مخاطبة من لا يفهم، فهذه فئات كما نلاحظ لا تستحق التوجيه، أو الحديث معها، وعلى الإنسان أن يترفع عنها، ويعدها غير موجودة. ولا يزال الشاعر يزري بأصحاب الحسد، لكنه يأنف من أن يوجه لهم الشتائم على الرغم من المعاناة التي يلقاها منهم، فهو صاحب الأخلاق والفضائل، لا يتفوه بالنقائص، ولا يخرج من الدائرة التي بناها

(١) السابق ٢/٩٥. (العي في الكلام: الحصر. وأصل العي: العجز عن الحجة).
(٢) انظر مثالاً في المصدر السابق ٢/٢٤٨ .
(٣) السابق ٤/٢٥٤ .

لنفسه، وأسسها على القيم النبيلة، فإذا نطق بالتعريض المؤلم، لا بالتصريح المسفّ، محتفظاً لنفسه بالمعاني الإنسانية السامية والحدود الأخلاقية، التي تحقق له قيمته في ذاته، ومكانته في مجتمعه، وبمقدار إظهار هذه القيم عنده، إظهار النقيض عند غيره من العيب والنقص والشر والرذيلة. يقول:

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضَبْنِي شُوَيْعِرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِينِي قَصِيرٌ يُطَاوِلُ؟
لِسَانِي بِنُطْقِي صَامِتٌ عَنْهُ عَادِلٌ وَقَلْبِي بِصَمْتِي ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلُ
وَأَتْعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لا تُجِيبُهُ وَأَغْيَظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لا تُشَاكِلُ
وَمَا التِّيهُ طِبِّي فِيهِمُ غَيْرَ أَنَّنِي بَغِيضٌ إِلَيَّ الْجَاهِلُ الْمُتَعَاقِلُ[1]

إنه يبدأ هذه الأبيات بالاستفهام الإنكاري عن هؤلاء الشعراء الذين ليس لهم في صناعة الشعر، وهم يحاولون مجاراته، ولا طائل لهم بذلك، إنهم يتطلعون إلى مباراته في القوة، وليس لهم حول ولا قوة، ويتطاولون وهم قصار. ويبدو أنه يحاول أن يرد عليهم، لكن لسانه يعدل عن ذلك؛ لأنهم ليسوا أهلاً لهجائه إياهم، فقلبه يضحك منهم ويسخر، وإن كان لسانه صامتاً لكنه لا يبديهما. ويرى أنه قد ألحق التعب والعناء والشقاء بهم لأنه لم يجبهم، كما سبب الغيظ للأعداء لأنه ترفع عن معارضتهم. ويحاول المتنبي أن يتواضع في هذه القضية، موضحاً ذلك في أنه ليس من عادته الكبر ولا من ديدنه التكبر لكنه يبغض الجاهل الذي يحاول أن يتكلف ويزعم بأنه عاقل؛ لأنه يعد العقل هو المعيار في إثبات الذات. هذه محاولة من المتنبي لكظم غيظه؛ لأنه لا بد من الترفع عنهم، ويرى في الرد عليهم شفاء لغيظهم، وتحقيقاً للتمادي في غيهم؛ لأنهم وجدوا التجاوب منه، ذلك أنهم سعوا بل جاهدوا في إرضاء أنفسهم ونيل مطالبهم عن طريق محاولتهم في الحصول على رد منه. وبهذا الترفع يظهر حكمة خالدة ، يعلم بها الناس كل الناس، وكيف لا وهو الذي قيل عنه: "إنه حكيم"؟[2] إن حكمه بحق تمثل معرفته بعلم الفلسفة التي ساعدته على التحرر من قيود التعبير المباشر عن الحوادث

---

(١) السابق ٢٣٧/٣.(الضبن: ما بين الإبط والكشح. والشويعر: تصغير شاعر).

(٢) انظر: وفيات الأعيان٢٣/٦. وشذرات الذهب١٨٦/٢. ومعاهد التنصيص ٢٣٤/٢. وسير أعلام النبلاء٤٨٦/١٣.

والمشاهدات، وخدمته في كثير من الأحيان التخلص من الأسلوب المنطقي الذي يقوم على البرهان؛ لينفذ إلى عالم أرحب، هو العالم الخارجي ، يطل عليه من خلال عالمه الداخلي النفسي بتعبير وجدان ، وإن كان فيه لمسلات من التعليل، إلا أنه ابتعد عن التعليل العلمي، والتفسير الذي يؤتى به لإقامة الحجة؛ لأن الشعر ليس من مهمته أن يعبر عن الواقع تعبيراً مباشراً أو يأتي بالدليل.

يرى الشاعر في نفسه عقوبة للحساد؛ لأنه يتفرد عليهم، ويتميز منهم، فهو فوقهم ، ولولا ذلك لما وقع الحسد، إنه يضع رؤوس الناس كافة تحت قدمه، ويربأ بنفسه عن النقصان؛ لأنه صاحب الفضائل المطلقة، التي لا يشوبها عيب، يقول:

إِنِّي وَإِنْ لُمْتُ حَاسِدَيَّ فَمَا أُنْكِرُ أَنِّي عُقُوبَةٌ لَهُمُ
وَكَيْفَ لا يُحْسَدُ امْرُؤٌ عَلَمٌ لَهُ عَلَى كُلِّ هَامَةٍ قَدَمُ؟

يَهَابُهُ أَبْسَأُ الرِّجَالِ بِهِ وَتَتَّقِي حَدَّ سَيْفِهِ الْبُهُمُ
كَفَانِي الذَّمَّ أَنَّنِي رَجُلٌ أَكْرَمُ مَالٍ مَلَكْتُهُ الْكَرَمُ[1]

لا يعفي المتنبي نفسه من لوم حساده؛ لأنه يتوجب عليهم أن يعجبوا به، لا أن يحسدوه، لكنه يتلمس لهم الأعذار، ويرى أنهم معاقبون بتقدمه عليهم وتفوقه، فهو صاحب الفضائل العظيمة، وهم أهل النقائص والعيوب، ولا وجه للمقارنة بين هذه وتلك، إنه يتعمد خلق الأضداد، والضد يتفوق على ضده، من خلال إظهار محاسنه وفضائله، ولذلك يصرح بأنه لا مناص من أن يحسد المرء إذا صار علماً يشار إليه بالبنان، لا سيما إذا كانت قدمه تعلو كل الهامات، وهو يتصف بصفتين لا تتوافران عند غيره، هما: الهيبة التي يراها من يأنس إليه بها ويخافه، والشجاعة التي يعرفها الأبطال فيتقونه. ولكنه يضيف خصلة ثالثة تتمثل في الكرم الذي يكفيه الذم ويمنعه، ذلك أنه يبذل المال ليصون كرمه في الوقت الذي يضنّ به غيره فهو يربأ بنفسه عن النقصان؛ لأنه صاحب الفضائل العظيمة المطلقة التي لا يشوبها عيب، وعلى الرغم من أنها تمثل مركز القوة عنده إلا أنها سبب يثير الجدل والحسد عند الحاسدين والوشاة؛ لأنهم يفتقرون إليها.

(١) السابق ٤/١٨٠. (أبسأ الرجال به: أي آنسهم به وآلفهم له).

فقدان الصبر على الحساد:

لقد سئم المتنبي الصمت، وكره أن ينأى بنفسه عن هؤلاء المسيئين الذين لم يعدموا الوسائل والحيل لإلحاق الإساءة به، إنهم يتعمدون ذلك أملاً في إثارته؛ لتحقيق غايات في نفوسهم، فهل تمكنوا من جره إلى حلبة الصراع التي قد تلحق به الضرر، وتحط من شأنه؟ إنه بدأ يرسل الإشارة تلو الإشارة لمن يرعوي، فهل ينجح في ذلك، يقول:

إذَا أَتَت الإِسَاءَةُ مِنْ لَئِيمٍ وَلَمْ أَلُمِ الْمُسِيءَ فَمَنْ أَلُومُ؟
أَمَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كَرِيمٌ تَزُولُ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ الْهُمُومُ؟
أَمَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَكَانٌ يُسَرُّ بِأَهْلِهِ الْجَارُ الْمُقِيمُ؟
تَشَابَهَتْ الْبَهَائِمُ وَالْعِبِدَّى عَلَيْنَا وَالْمَوَالِي وَالصَّمِيمُ
وَمَا أَدْرِي أَذَا دَاءٌ حَدِيثٌ أَصَابَ النَّاسَ أَمْ دَاءٌ قَدِيمُ؟(١)

لاحظنا أن المتنبي كان يربأ بنفسه عن الرد على الحساد والأعداء، ثم رأيناه قد غير رأيه متردداً في لومهم، بل أخذ يتلمس لهم الأعذار على ما هم فيه من حقد، وما تنطوي عليه نفوسهم من ضغينة؛ لأنهم أقل شأناً ومكانة ورفعة وعلماً وفضلاً منه، بل وضعهم في الجهل والخسة. إنه بدأ يؤمن بمبدأ اللوم، ويرى أنه ضرورة؛ لأن الإساءة والحقارة والجبن قد عمت، ولا بد من لوم المسيء اللئيم، وردعه عن غيه، فإذا لم يوجه اللوم إليه، فإلى من يوجهه؟ إنه أسلوب منطقي، وتعامل طبيعي؛ لأنه يعدّ الردّ عليهم ضرباً من الضعف والتنازل، وأن المقارنة بينه وبينهم شبه مستحيل، بل ضرب من الخيال؛ لأنها ستكون حرباً مفتوحة بين الفضائل والنقائص وشتان ما بين الثرى والثريا. إنه لم يعد يرى في هذه الدنيا كريماً، يستأنس به؛ ليزيل به الهموم عن القلب. كما أن الأماكن التي حطّ بها رحاله قد عمّها الفساد والأذى، ولم يعد فيها مكان واحد يجد الإنسان فيه جاراً يأنس به ويرعاه، فيسر بجواره. وإذا كان الأمر متعلقاً بشيوع الجهل في الناس، فإنه يرى أنهم والبهائم سواء، قد تشابه عليه التفريق بينهم وبين الحيوان. ولم يقف عند هذا الحد، بل أخذ يتساءل سؤال العارف بالذي أصاب الناس من

(١) السابق ٢٨٢/٤.(والصميم الصريح النسب الخالص. والعبدى: العبيد. والموالي: المماليك).

تملك اللئام الأخساء زمام أمورهم، لعدم وجود الكرام القادرين على حكم الناس، الساعين لنشر الفضائل بينهم. ويبقى تساؤله قائماً عن هذا الوضع، هل هو داء قديم متوارث استمرأه الناس وقبلوا به، ولا يمكن تغييره؟ أم هو داء حديث أصابهم وانتشر بينهم انتشار النار في الهشيم ولا يمكن التخلص منه؟ إن هذه القضية تؤرقه؛ لأنها مصيبة عمت في الناس، إنه يسعى لنشر الفضائل، وهم يقرون النقائص، إنه يدعو لإقامة الحق والعدل، وهم يقبلون بالظلم والذل، إنه يتطلع إلى الرفعة والمجد، وهم يرتعون في البؤس والشقاء. ولذلك كان هدفاً يرمى بسهام الحاقدين، كأنه سقط عليهم من كوكب آخر؛ لأنه يدعوهم إلى مبادئ لم يعهدوها أو أنهم نفروا منها؛ لعدم ملاءمتها لما يؤمنون به، فهي لا تتوافق مع قيمهم. لكنه يصر على لومهم وتوجيههم وتخليصهم مما هم فيه.

<u>الرد على الحساد والانتقام منهم:</u>

لعل نبرة التحدي، وإظهار قدرة الشاعر على التخاطب، وامتطاء صهوة الشعر، وبيان الصور النفسية، وتصوير الواقع في الذات والنفس والضمير، وكشف خفايا الروح المستترة يظهر في مخاطبة الشاعر سيفَ الدولة بقوله:

أَزِلْ حَسَدَ الْحُسَّادِ عَنِّي بِكَبْتِهِمْ — فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِيَ حُسَّدَا
إِذَا شَدَّ زَنْدِي حُسْنُ رَأْيِكَ فِيهِمُ — ضَرَبْتُ بِسَيْفٍ يَقْطَعُ الْهَامَ مُغْمَدَا
وَمَا أَنَا إِلاَّ سَمْهَرِيٌّ حَمَلْتَهُ — فَزَيَّنَ مَعْرُوضاً وَرَاعَ مُسَدَّدَا
وَمَا الدَهْرُ إِلاَّ مِنْ رُواةِ قَلائِدِي — إِذَا قُلْتُ شِعْراً أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا
فَسَارَ بِهِ مَنْ لا يَسِيرُ مُشَمِّراً — وَغَنَّى بِهِ مَنْ لا يُغَنِّي مُغَرِّدَا
أَجِزْنِي إِذَا أُنْشِدْتَ شِعْراً فَإِنَّمَا — بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مُرَدَّدَا
وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَإِنَّنِي — أَنَا الصَّائِحُ الْمَحْكِيُّ وَالآخَرُ الصَّدَى[1]

---

(١) السابق ١٣/٢ ــ١٥. (السمهري:الرمح. والصدى:الصوت الذي يجيبك من الجبل وغيره). وهناك رواية: "أنا الصادح". وهناك أبيات تقترب في معناها قالها في كافور الإخشيدي:

أَبا المِسْكِ أَرجُو منكَ نصراً على العِدَا — وآمُلُ عِزّاً يَخْضِبُ البيضَ بالدَّمِ
وَيوماً يُغيظُ الحاسدينَ وحالةً — أقيمُ الشَّقَا فيها مقامَ التنعُّمِ

(السابق ٢٦٨/٤). وانظر مثالين آخرين في المصدر نفسه ٢٧٨/١ــ٢٧٩و١٠٩/٢.

كان كثير الدلال والتغطرس على سيف الدولة ــ كما مرّ معنا ــ فهاجمه أبو فراس الحمداني "من هذه الناحية بل كل حساده هاجموه منها، ووصموه بوصمة الكبر والجنون بالعظمة، إلى جانب رميهم إياه بالسرقة، واتهامه بالأخذ من الشعراء، وهم يعلمون أن هذه التهمة تجرح كبرياءه، وتمحق خيلاءه، وتقوض عظمته التي يغيظهم منها"[١] فجاء رده عليهم سريعاً، عنيفاً ساخطاً موضحاً مكانته ومكانتهم، ومبيناً تربعه على إمارة الشعر بلا منازع، وأنه شاعر العربية بلا قرين، يحدث دوياً وصخباً، ينتظره المتشاعرون؛ ليرددوا صداه، وينشده الدهر منتشياً. إن البيت الأول "ينطوي على بعض العتب واللوم، أحاله في الشطر الثاني إلى مدح من تخريجه تخريجاً يرضي عنجهية الممدوح، ويطلعه على إقراره بفضله. فالنعم العظيمة التي أسداها إليه، هي التي أوغرت صدور الحساد المتألبين عليه. هكذا يزاوج المتنبي العتاب والمدح ، فلا يستثير غضب الممدوح، إلا أنه يستطرد في البيت اللاحق إلى معنى أشد عنفاً... إن الممدوح إذا ما تفطن إلى خبث طويتهم ، وحكم على فسادهم حكماً صائباً، فإن الشاعر ينقض عليهم ويعاقبهم أشد العقاب، فهو لا يثنيهم عنه إلا حماية الأمير لهم، وهكذا يبطن المتنبي عنفه بالمودة ولا يدع للأمير مجال التعتب عليه، إذ لا يزال يبدي حرصه على ما يرضيه، وقد بلغ غاية ذلك في البيت الثالث... إذ يقدم للأمير هنا مآثره إلى جنبه، يعظم من نفسه لكنه يظل يستعلي على الأمير... وهنا تبدو لنا قدرته الفائقة على مزاوجة المعاني وجمع المتناقض منها في معنى واحد بالتخريج والتأويل".[٢] إن الأبيات الأولى كما نلاحظ ترضي المتنبي ونفسيته التي ترى أن سيف الدولة يحقق لها الطموح، بل ترى أنها تتفق معه وتتحد. أما الأبيات الأخرى فهي في التعظيم والتفاخر، جاءت إعلاماً للممدوح بحقيقة المادح وقيمته، وتنبيهاً للأول على مقدرة الشاعر ومكانته؛ لأنه شاعر زمانه، ووحيد عصره، وفريد دهره؛ لأن الدهر راوية عنده،

(١) مقال بعنوان :"فضيلة خلقية" طاهر أحمد الطناحي، مجلة الهلال، ص ١١٨٣.(مج٤٣سنة١٩٣٤).
(٢) في النقد والأدب، إيليا الحاوي ٢٢٦/٣ .

والناس الذين لا يحسنون الغناء يصدحون بشعره، كما أنهم يستمدون نشاطهم منه. إنه الصوت الذي لا يعلو عليه صوت؛ لأن الأصوات التي تسمع هي صدى لصوته.(١)

ويبدو أن المتنبي كان يدرك أبعاد الحسد في نفوس الناس، وكيفية التغلب عليه، وذلك بالاستعانة بالمال؛ لأنه هو الداء والدواء، ولعله يكون سبباً في إسكات الحساد، فها هو ذا يقول لممدوحه:

وَقَدْ مُنِيْتُ بِحُسّادٍ أُحَارِبُهُمْ فَاجْعَل نَدَاكَ عَلَيْهِمْ بَعْضَ أَنْصَارِي(٢)

كان المتنبي قادراً على صد كيد الكائدين، ولا يتأتّى ذلك إلا من خلال الثأر وإطفاء نار حقدهم الدفين، فقد قال لما استعظم قوم ما قاله في آخر مرثية جدته:

يَسْتَعْظِمُونَ أَبْيَاتاً نَأَمْتُ بِهَا لا تَحْسُدُنَّ عَلَى أَنْ يَنْأَمَ الأَسَدَا
لَو أَنَّ ثَمَّ قُلُوباً يَعْقِلُونَ بِهَا أَنْسَاهُمُ الذُّعْرُ مِمَّا تَحْتَهَا الْحَسَدَا(٣)

إنه يشير إلى هؤلاء الحسادين الذين استعظموا أبياته، ويرد عليهم بأنهم استكثروا أبياتاً يعدّها حقيرة، وما هي إلا مجرد صوت من أصوات، كزأرة الأسد التي يخرجها فهل يحسد عليها؟ ولو كان لهم قلوب يعقلون بها أبياته وما فيها من معان ودلالات من الوعيد والتهديد لأنساهم الذعر والخوف منها الحسد. إن هذه الأبيات تدل على انفعالات عنيفة، ذلك أن المتنبي كان يتفهم واقع النفس البشرية، ويدرك مقتضياتها، ويعرف أهدافها وغاياتها، ما دفعه إلى تقريعهم والازدراء بهم، والسخرية منهم، متعالياً عليهم، متفاخراً بنفسه.

---

(١) يؤكد هذا المعنى في موضع آخر حين يمتدح نفسه ويفتخر بها بأنه يخترع المعاني الأبكار التي لم يسبق إليها، أما غيره من الشعراء فإنهم يقولون ما سبق إليهم، وقيل من قبلهم، يقول:

أنا السابقُ الهادي إلى ما أقولُهُ إذِ القولُ قبلَ القائلينَ مَقُولُ

(شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٣/٢٣٠).

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي شرح العكبري (التبيان في شرح الديوان) ٢/١٤١. من قصيدة قالها عند ارتحاله عن علي بن أحمد الخراساني. ومعنى البيت: أنا مبتلى بحساد أحاربهم، فانصرني عليهم بجودك، لافتخر عليهم بعطائك.

(٣) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٢/٩١. انظر المرثية الميمية في هذا المصدر نفسه ٤/٢٢٦ــ٢٣٥ واقرأ ما فيها من فخر بالنفس، وتحد للناس والزمان والدنيا، فلا يرى فيها فنسه.

ولما كان المتنبي رب السيف والقلم، توجب عليه أن يستخدم هذا السلاح بشقيه، إذ لم يعد التغاضي مجدياً ولا اللوم نافعاً، يقول:

أَعْدَدْتُ لِلْغَادِرِينَ أَسْيافَا أَجْدَعُ مِنْهُمْ بِهِنَّ آنَافَا
إِذَا امْرُؤٌ رَاعَنِي بِغَدْرَتِهِ أَوْرَدْتُهُ الْغَايَةَ الَّتِي خَافَا[1]

إنه غير قادر على كتم ثورته المتأججة الثائرة كالبركان، ولا السيطرة على كبح جماح انفعالاته الجياشة التي تغلي في صدره، إنه أعد العدّة، وأصبح جاهزاً للهجوم، من أجل قطع أنوف الحساد الغادرين بالسيوف التي شحذها من أجل إذلالهم والتنكيل بهم. وإذا حاول امرؤ إخافته بغدره فإنه ليس له إلا أن يكافئه بالقتل الذي هو غاية ما يخشاه المرء ويخافه. ولما كان الشاعر يملك هذه القوة والمقدرة، وهو قادر على توظيفها في كل وقت فإنه يستخدمها عند الضرورة وفي الحالات القصوى لدرء الخطر بالهجوم لا الدفاع عن النفس.

إنه البحر الهائج الذي يغرق من زاحمه، فهو لا يكمد حساده؛ لأنه لا يأبه بهم، لكنهم إذا زاحموه وضايقوه فإنهم لن يطيقوا النتائج التي منها الكمد والحزن والألم، يقول:

وَمَا كَمَدُ الحُسّادِ شَيئاً قَصَدتُهُ وَلَكِنّهُ مَن يَزحَمِ البَحرَ يَغرَقِ [2]

يقال: إن بدراً بن عمّار اتهمه بأنه لا يقدر على ارتجال الشعر، فقال:

زَعَمْتَ أَنَّكَ تَنْفِي الظَّنَّ عَنْ أَدَبِي وَأَنْتَ أَعْظَمُ أَهْلِ الْعَصْرِ مِقْدَارَا
إِنِّي أَنَا الذَّهَبُ الْمَعْرُوفُ مَخْبَرُهُ يَزِيدُ فِي السَّبْكِ لِلدِّينَارِ دِينَارَا[3]

ينكر المتنبي على هذا الأمير مثل هذه التهمة التي تتمثل في نفي الظن عن المتنبي بأنه غير قادر على ارتجال الشعر، وهو ليس بحاجة إلى هذا التجشم من نفي الظن عنه؛ لأن الشاعر في منزلته ومكانته وفضله مثل الذهب الخالص، بل يزيد دينار الذهب المضروب ديناراً آخر.

---

(١) السابق ٣/٣٦و٣٨.

(٢) السابق ٣/٤٨.

(٣) السابق ٢/ ٢٤٤ .

إن هذه الصيغ الخبرية المباشرة تجسد نفسه، وتوضح فكره، فهذان البيتان يوضحان مدى شعوره بالغضب الذي سيطر عليه من خلال الشك الذي ساورهم في مقدرته على الارتجال في نظم الشعر، إنها لحظة شعورية تعبر عن انفعال فيه لهجة النقمة الثائرة في النفس. إن الصورة المادية التي عرضها المتنبي هنا ــ وفي مواضع أخرى ــ تهدف إلى الدقة في التشبيه دون حاجة إلى التحليل أو التعليل ، لأن غايته التأمل والإبداع، وإن كانت الصورة لامست في بعض ظلالها التفسير من أجل الإبانة والإثارة.

لم يعد يرى أمامه أحداً من الشعراء يقدر على المجابهة أو حتى الوقوف أمامه، بل يسخر من كل الشعراء، يقول:

خَلِيلَيَّ إِنِّي لا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ فَلِمْ مِنْهُمُ الدَّعْوَى وَمِنِّي الْقَصَائِدُ(١)

إنه لا يزال يضرب على وتر التميز والتفرد الذي يخلق نار الحقد في قلوب الحاسدين. فالفضائل التي كان يتحدث عنها يمكن أن تتوافر في إنسان مجتمعة أو متفرقة. ولكنه يضيف إليها فضيلة لا يتمتع بها إلا هو، وهي شاعريته وفحولته، فهو صاحب الغرر التي لا تجارى ولا تبارى، يتربع على إمارة الشعر دون غيره، أما من زعموا بأنهم شعراء فهم يدعون الشعر وينتحلونه، وليس لهم في صناعته من سبيل. وكأنه يقول: معهم الحق في ذلك، فإذا كانوا غير قادرين على نظم الشعر، وهم راغبون في قريضه، فليس أمامهم إلا أن يأخذوا منه؛ لأنه هو المالك لناصيته، المخترع لمعانيه، المبدع في صياغته، المتفنن في إخراجه.

يبدو أن الصراع بينه وبين المتشاعرين قد احتدم، ولم يعد قادراً على تحمل ما يسمعه منهم في باب الشعر؛ لأنهم أفسدوه، وليس عندهم قابلية في تذوق الأدب الرفيع واستساغته، يقول:

أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غَرُوا بِذَمِّي وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْعُضَالا؟
وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدْ مُرّاً بِهِ الْمَاءَ الزُّلالا(٢)

---

(١) السابق ٣٩٤/١. وانظر مثالاً آخر في المصدر نفسه ١١٠/٣.

(٢) السابق ٣٤٤/٣.

إنه يوجه ضربة قوية إلى هؤلاء الشعراء المزعومين الذين يدعون الشعر وهم ليسوا من أهله، حينما تطلعوا بل ولعوا بإظهار عيوب المتنبي ونقائصه؛ لأنه داء لهم ، يسقمون به حسداً، لا برء منه ولا شفاء، ولذلك لا يمكنهم أن يحمدوا الداء الذي ليس له دواء، مثلهم معه مثل المريض مع الماء العذب الصافي الذي يجده مراً، لشدة مرارة فمه. وكأنه يرثي لحالهم لأنهم لو كانت حواسهم سليمة غير مريضة لعرفوا فضله، فالجميل يرى كل شيء جميلاً، وصاحب السوداوية يرى الجمال قبحاً والفضيلة نقيصة وعيباً.

إن الإطناب في توضيح هذه الصورة، واستقصاء جزئياتها له دلالات عميقة تتمثل في اتصالها بهدف الشاعر وغايته وانفعاله من أجل تحقيق الغرض الأساسي الذي يعبر عن المعاناة لرسم صورة فنية، ذلك أنه يرى، يتأمل، يختزن، يتمثل، يتأمل، ينفعل، يتفاعل حتى يصل الحدث إلى درجة النضج فتقذفه النفس بعد معاناة شاقة.

وعلى الرغم من أنه صنع من هؤلاء الشعراء سخرية، وأخرسهم في زمانه، فقد أدخلهم التاريخ ولو من باب التهكم، يقول:

لا تَجْسُرُ الْفُصَحَاءُ تُنْشِدُ هَهُنَا بَيْتاً وَلَكِنِّي الْهِزَبْرُ الْبَاسِلُ
مَا نَالَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ كُلُّهُمْ شِعْرِي وَلا سَمِعَتْ بِسِحْرِي بَابِلُ
وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهْيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلُ
مَنْ لِي بِفَهْمِ أُهَيْلِ عَصْرٍ يَدَّعِي أَنْ يَحْسُبَ الْهِنْدِيَّ فِيْهِمْ بَاقِلُ؟(١)

(١) شرح ديوان المتنبي ، البرقوقي ٣٧٦/٣. وانظر قصة هؤلاء الأمراء والشعراء في : خزانة الأدب، البغدادي ٣٥٥/٢. والصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، يوسف البديعي ، ص ١٤٣. انظر خبر الملكين اللذين كانا يعلمان الناس السحر في القرآن الكريم ، البقرة : ١٠٢. وثمار القلوب ،الثعالبي ، ص ٦٧ و٢٣٣. وانظر خبر باقل الذي يضرب به المثل بالعي : ثمار القلوب ، ص ١٠٢و ١٢٧. ولسان العرب ، ابن منظور: (بقل).وانظر مثالاً آخر في سير قصائده في البلاد،إذ لا يستطيع شاعر مجاراتها، في : شرح ديوان المتنبي ، البرقوقي ١٩٨/٢ .

إنه يرد على الحاسدين والمتشاعرين بنبرة المتحدي الواثق من نفسه، ويرى أنه الأسد الباسل القوي الذي ينشد غرر قصائده في حضرة الممدوح، ويتحدى هؤلاء الشعراء الفصحاء إن كانوا يجرؤون على أن ينشدوا بين يدي الممدوح لهيبته وعلمه بالشعر. ثم يصعد الشاعر درجة التحدي وكأنه أصيب بجنون العظمة، إذ لم يعد يرى أحداً من معاصريه ولا من سابقيه حتى إنه يزعم أن شعراء الجاهلية جميعاً ما نالوا مثل شعره، ولا سمع أهل بابل الذين تعلموا السحر من الملكين اللذين كانا يعلمان الناس السحر بمثل شعره، وكأنه يريد أن يقول: إنه فاق العرب القدامى الذين صنعوا ديوان العرب بأشعارهم، كما فاق السحرة الذين بإمكانهم أن يتفوقوا على الناس بما أوتوا من قوة سحرهم، إنه يعلم الممدوح، ويرسم له طريقة تفكيره ومنهجه في التعامل مع الناس، لا سيما مع الذين يذمونه وهم يعانون من النقص، فذمهم دليل واضح على كمال الشاعر؛ لأن الناقص لا يحب الكامل، لما بينهما من بون شاسع في التفاضل. ويضرب مثالاً على ذلك من جهل الناس بزعمهم أن باقلاً الذي يضرب المثل به في العي، يعلم حساب الهند مع عدم معرفته وعلمه بالحساب، فهم جهلة لا يفرقون بين الجاهل والعالم. ومع ذلك فهو يحاول بهمته وعزيمته أن يبث روح الحياة والنشاط في هذه الفئة التي تحدثنا عنها، ويخط لهم طرقاً معبدة، وسبلاً واضحة، وما عليهم إلا أن يعترفوا بجهلهم، ويعودوا عن غيهم بقراءة أشعاره؛ لأنها تمثل حياتهم في شتى مناحيها، فهو صاحب البيت الذي يقول:

أَنَــا الَّذي نَظَــرَ الأَعْمَــى إِلَــى أَدَبِــي وأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِــي مَــنْ بِــه صَمَــمُ[1]

فإذا كان الأعمى يبصر بأدبه، والأصم يسمع بشعره، لما له من أثر بالغ في شفاء الداء، وراحة النفوس، فما بالنا بهؤلاء الحساد الذين نصبوا من أنفسهم أعداء له؟ إنهم يعانون من نقائص وعيوب، وهي بمثابة الداء، شريطة أن يعودوا إلى رشدهم معترفين بفضائل المتنبي التي لا تعدّ من وجهة نظره.

(١) السابق ٤ / ٨٣ .

بقي أن أقول: إن المتنبي كنى نفسه بـ(أبي المحسَّد)[١]، ولهذه الكنية دلالة عميقة، تتجلى في أنه كان يعلم علم اليقين بأنه صاحب الفضائل والتميز والتفرد، "مالئ الدنيا، وشاغل الناس"،[٢] ومن اتصف بهذا فإنه محسود، ما جعله يعبر عن هذه الفكرة أعمق تعبير، أليس هو القائل:

وَهَكَذَا كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا
مُحَسَّدُ الْفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثَرِي أَلْقَى الْكَمِيَّ وَيَلْقَانِي إِذَا حَانَا[٣]

خاتمة:

وبعد هذه الجولة مع المتنبي وحساده يمكن أن نرسم الآن خلاصة رحلته مع هؤلاء الحساد؛ لتكون واضحة جلية. فمن يتتبع رسم خط بياني لتلك الرحلة يجد أن المتنبي يسير سيراً تصاعدياً، ويتدرج تدرجاً منطقياً. إذ بدأ بذكر بيان الحسد وانتهى بإسكات الحساد وإفحامهم، كما هو مبين أدناه:

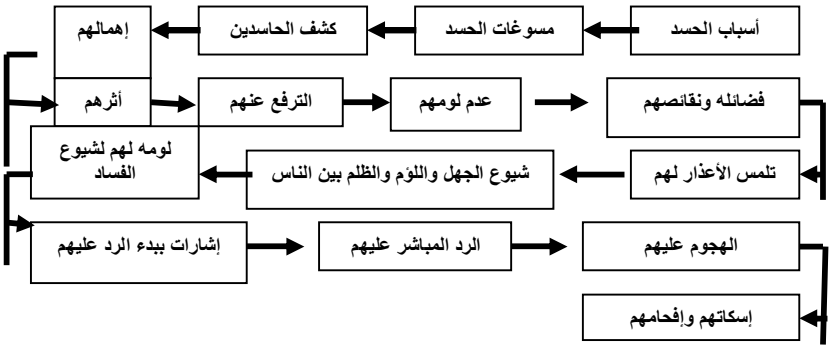

(١) (محسد) هذا كان ابنه الأكبر الذي يرافقه في رحلاته وتنقلاته، وقد قتل معه. انظر: آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني، ص ١٧٠. والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام ٨٤٦/٢. ووفيات الأعيان ١٢٥/١.

(٢) هذه مقولة أطلقها ابن رشيق القيرواني في كتابه: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ١٠٠/١.

(٣) السابق ٣٥٤/٤.

THE STANCE OF ABI- ATTAIEB ALMUTANABI FROM HIS ENVIOUS RIVALS (٣٠٣-٣٥٤ AH)

(View Study and Analysis)

Prof. Dr.Hashim Salih Manna

Abstract

The peculiar character of Almutanabi and his art has caused a great and vast dispute among the political، the social and the artistic entities. Since this poet strove very hard to build a society that is based on excellent ethics and virtuous values. He used to enjoy numerous attributes، a number of poets were lacking. Some of which are the following: his ambitions، his aspirations، his dreams، his eloquence، his self-confidence، his excellent individuality compared to his peers، his distinguished and unique character compared to the youths in his generation، his physical power، his aspiration، his determination، his chivalrous character، his genius mind، his skills، his self-esteem and superciliousness، his noble character in refusing to indulge in west-time circles، and his refusal to describe other than kings and princes (only those who enjoy haughty characters)، i.e. those whom he prescribed on them his specific conditions- these conditions which no poet dared to lay down before him nor after him، and they (kings and princes) accepted these conditions and not only they accepted them but also they were eager to gain his pleasure in the hope to be described in one of his sublime poems. Due to all the previous، the envious - gloating/rejoicing over another's grief (schadenfreude)- rivals started to plot against him، and feel rancor towards him، and accuse him with false accusations، because he stood as an obstacle between them and the ruling class، and because of him they were deprived from the prizes and gifts، and he was a cause in the ignorance of their poems and their being driven away from the courts of such (kings and princes)، because such poets failed to keep up or

compete with him. Almutanabi discovered them and showed the reasons of their jealousy، and despite of that sometimes he just ignored them and sometimes he found excuses for them، but in other times – when he saw their persistent envy، their ignorant minds، their corruption، and their trifle conducts have extended and spread and started bothering him when reached to the men of power he retaliated with might and harshness so that he may repulse them and cause them to shut their faces up، and convince them، but in doing that he never cursed them nor used bad language with them، and in doing that he kept his excellent principles and great ethics that he subscribes to and believes in، understanding the lofty position he and his art occupy in the hearts of all the just people، the readers of his poetry.